

روايات مصرية للجيب
7
الآن تراه..!
سافاري
www.dvd4arab.com
Hany3H

مقدمة

(سافارى) مصطلح غربى تم تحريفه عن كلمة (سافريَّة) العربية .. وحين يتحدثون عن الـ (سافارى) فهم يتحدثون عن رحلات صيد الوحوش فى أدغال (إفريقيا) ..

لكن وحدة (سافارى) التى سنقابلها ها هنا كانت تصطاد المرض فى القارة السوداء .. ووسط اضطرابات سياسية لا تنتهى .. وبيئة معادية .. وأهال متشككين ..

بطلنا الذى سنقابله دومًا ، ونألفه ، ونتعلم أن نحبه هو د. (علاء عبد العظيم) .. شاب مصرى ككل الشباب .. اختار أن يبحث عن ذاته بعيدًا وسط أدغال (الكاميرون) ، وفى بيئة غريبة وأمراض أغرب وأخطار لاتنتهى فى كل دقيقة ..

وفى هذه الروايات نقرأ مذكرات د. (علاء) .. نعيش معه ذلك العالم العجيب الذى لم تنجح الحضارة فى تبديل معالمه ..

سنلقى الكثير من الفيروسات القاتلة .. والسحرة المجانين .. وأكلة لحوم البشر .. والمرتزقة الذين لايمزحون .. وسارقى الأعضاء البشرية .. والعلماء المخابيل ..

سنلقى كل هذا .. ونلقى محاولات طبيبنا الشاب كى يظل حيًا .. وكى يستطيع فى الوقت ذاته أن يظل طبيبًا ..

تعالوا نلحق بوحدة (سافارى) فى (الكاميرون)..

تعالوا ندخل الأدغال ونجوب (السافانا) ونتسلق البراكين ..

تعالوا نواجه المرض مع فريق (سافارى) ..

★ ★ ★

١ - ليلة هادئة ..

المكان : (تورنتو) .. (كندا) ..

الزمان : ليلة باردة من ليالى (فبراير) ..

الحدث : لم يحدث شىء بعد .. لماذا تسألون ؟

* * *

منزل ريفى جميل على بعد أمتار من البحيرة المتجمدة الآن ..

تعود (كارولين) من الخارج حاملة مشترياتها من المدينة التى تبعد أميالاً عديدة .. لم يكن الوقت ملائمًا للتسوق لكنها تذكرت أن زوجها آت غدًا وبصحبته المدير .. إن المديرين فى العالم الغربى يتغدون عند موظفيهم ، ويعتبرون هذا نوعًا من تحسين علاقات العمل ..

تضع سيارتها فى المرآب .. ثم تحمل كيسًا عملاقًا يحوى كل ما يخطر ولا يخطر ببالك من أطعمة لا بد منها لإعداد وجبة الغد .

تطوّح بحذائيها عند المدخل ، ثم تركل الباب بطرف كعبها ، وتتقدم إلى داخل الشقة الواسعة ..

الإضاءة خافتة لكنها تتبين المطبخ .. تضع ما تحمله فى كثير من عناء هناك .. تضىء النور الكهربى .. تفتح الثلاجة .. ترصّ ما معها من معلبات ومغلفات فى أماكنها الملائمة ..

البرد شديد حقًا ..

تخرج إلى غرفة المعيشة وتضغط على زرّ جهاز الـ (ريموت كونترول) الخاص بالمدفأة .. الدفء يزحف ببطء فى المنزل الخاوى ..

لماذا لم ترزق بأطفال ؟ سؤال هو نوع من الوقاحة من جانبنا ومن جانبها .. إن العيوب الخلقية فى الرحم تحدث كثيرًا .. ولها مزايا مهمة .. فى بيت بلا أطفال يمكنك أن تجد النظام والنظافة وكل قصاصة ورق حيث تركتها .. أما عيوبها فهى ذلك الحنين الجارف إلى صوت طفل .. طفل يركض من أعلى الدرج ويتعثر .. ثم يحتضنها ويدفن رأسه الصغير فى بطنها ..

عيوبها هو ذلك الإحساس بالوحدة والوحشة كلما عادت إلى دارها ، حين يكون زوجها فى رحلة عمل..

الأمل ؟

لا أمل .. إن (كارولين) امرأة مجرّبة عركتها الحياة ، وهى تفهم جيدًا معنى الشعيرات الرمادية التى اشتعلت فى رأسها ، وتفهم معنى التجاعيد المحيطة بفمها وتحت عينيها ..

إن الخامسة والأربعين سن متقدمة حقًا .. لها معنى واحد : هو أن فرصتها فى أن تكون أمًّا معدومة أو أدنى إلى ذلك ..

كانت (كارولين) معلمة .. لها وجه مريح ، وإن يكن بعيدًا عن سحر الأنوثة .. وجه أم طيبة أو صديقة لطيفة .. وعويناتها السميكة تجعلها كرجل عجوز لطيف المعشر ..

كانت الأمومة تناسبها كأنما خلقت لها .. لكنها لم تستطع أن تصير ما يفترض أن تكونه .. وهى ذى حياتها ولّت كشمعة تذوب دون أن يشعل أحدهم شمعة أخرى منها ..

لكنها ـ على كل حال ـ لم تكن فى مزاج رائق للاسترسال فى خواطر الرثاء للنفس هذه .. عليها أن تبدأ الإعداد لمأدبة غد .. يجب تتبيل اللحم ، وتقطيع الخضر .. وإعداد الأطباق .. الطاقم الذى لا تستعمله إلا مرة كل عامين ..

ارتدت بيجامة صوفية ، واتجهت إلى المطبخ ، ولم تنس أن تفتح جهاز التلفزيون الموجود هناك على سبيل سماع صوت آدمى معها فى المنزل الواسع ..

السكين وتقطيع الفخذ على رخام المطبخ ..

أغنية ما فى التلفزيون .. نشرة الأخبار .. ثم شىء ما عن ضحية جديدة .. رجل فى هذه المرة .. وجدوه فى المتنزه العمومى وقد غطت الثلوج جثته ، ولم يكن عسيرًا على الطبيب الشرعى ـ وكلهم عباقرة ـ أن يعرف أن عنقه قد تمّ حزّه وهو جالس ..

ماذا يفعله رجل فى منتصف العمر بالجلوس فى المتنزه فى هذا البرد اللعين ؟ لا أحد يعرف .. لكنه لم ينتحر بالتأكيد .. ولم يُقتل فى مكان آخر .. إن الأمر يتعلق ـ حتمًا ـ بالدماء على صدره ، وعلى المقعد من تحته .. إنها أشياء بديهية يعرفها قُرّاء القصص البوليسية ، لكنها لم تنتبه جيدًا للتفاصيل ..

فقط نظرت إلى الشاشة نظرة عابرة ، لترى صورة باسمة للضحية .. رجل فى منتصف العمر كاد رأسه

يخلو من الشعر ، يرتدى معطفًا وربطة عنق وينظر للكاميرا فى مرح ، كأنما يقول :

ـ « معذرة ! لو عرفت أن الصورة ستذاع فى كل أرجاء (كندا) بمناسبة مصرعى لاخترت ربطة العنق الرمادية ! »

حقًا لم يكن يعرف .. كلنا لا نعرف أية صورة لنا ستوضع فى نعينا ..

قطعة اللحم لم يَذب تمامًا ثلجها فى هذا البرد .. كان عليها أن تخرجها من الثلاجة عصر اليوم ..

لكن .. لا بد من جهد أكثر .. أصابعها تتجمد لكنها تواصل المحاولة ..

والمذيع يتكلم فى جهاز التلفزيون .. يقول أشياء كثيرة عن واجب الحذر .. عن السفاح الجوّال أو القاتل المتسلسل الذى أتم بنجاح عشر جرائم قتل شنيعة .. سبعة رجال وثلاث نساء .. ضحية واحدة لم تمت ، واستطاعت أن تصفه بدقة لرجال الشرطة ..

وعلى الشاشة رأت (كارولين) ذات الوجه الذى رأته عشرين مرة من قبل على الشاشة وفى الصحف ..

عوينات .. شعر قصير .. جبهة ضيقة .. ضحكة

تتظاهر بالمرح لكنها أقرب إلى تكشير الأنياب .. والصورة كلها مرسومة بأسلوب رسامى البوليس المتردد الخشن الملىء بالتصحيح، وبالأبيض والأسود طبعًا ..

وكالعادة قالت (كارولين) لنفسها :

ـ « يبدو وديعًا .. كأنه مدرس أو طبيب .. »

وكالعادة كانت تعرف أن السفاحين جميعًا يبدون كهذا ، ولا بد من جار أو صديق يهتف فى دهشة :

« لقد كان ملاكًا .. مستحيل أن يكون هو» لم تر قط صورة سفاح له أنياب وندبة على خدّه وله حاجبان كثّان .. كلهم يبدون كهذا ..

كانت تعرف أن هذه الأشياء تحدث للآخرين فقط ..

هى بالذات يستحيل أن يجدوها ميتة غارقة فى دمها .. لكن الفكرة لم تبد عسيرة جدًا هذه الليلة بالذات ..

هى وحيدة .. والمنزل صامت كالقبر .. والليل مظلم كقاع المحيط .. والفكر نشط كمحرك طائرة .. ماذا إذا ؟

وهكذا ـ يمكننا فهم أسبابها ـ أمسكت السكين فى يدها اليمنى الباردة ، وخرجت فى تؤدة من المطبخ ..

إن بيوت هؤلاء القوم تختلف عن بيوتنا نحن المصريين .. فالبيت ملىء بالثغرات سهلة الاقتحام .. وهناك فتحة تناسب كل غرض ممكن : باب خلفى .. باب مطبخ .. باب أمامى .. فتحة دخول البريد والجريدة .. باب صغير لدخول وخروج الكلب .. فإذا فرغنا من هذا تبقى حقيقة أنهم يحبون الزجاج أكثر من اللازم .. جدران كاملة يتم تحويلها إلى نوافذ لا يغطيها سوى ستار ..

هنا ـ للدقة ـ أعلن أن بيت (كارولين) كان مؤمنًا بشكل جيد ولم يكن من طراز المنازل الغربالية هذه ..

كانت تعرف أن كل شىء موصد بإحكام .. لكن تبقى مشكلة الباب الرئيسى للمنزل .. تُرى هل هو ....

.... موصد ؟ ....

مفتوح ! مفتوح وموارب ومن ورائه الظلام الحالك المهيب ..

تُرى هل نسيت أن تغلقه ؟ لقد ركلته بكعب قدمها ـ هل تذكرون هذا الجزء ؟ ـ فهل انغلق وقتها ؟

يصعب التأكد من هذا ، لهذا نظرت حولها مرتين.. ثم أغلقت الباب بإحكام وبالمزلاج ، وثبتت سلسلة الأمان إياها ..

وهنا نجد أنها ارتكبت أول أخطائها الفادحة .. كان عليها ببساطة أن تخرج من الباب إلى العراء وتولول .. تركض حتى منزل أقرب جار ..

لكن كيف كان لها أن تعلم ؟

الآن ترتكب الخطأ الثانى :

تعود إلى المطبخ وتضع السكين فى حوض الغسيل.. لقد وجدت أن عليها الانتظار قليلاً حتى يذوب الثلج كله ..

الخطأ الثالث كان متوقعًا :

دق جرس الهاتف وجاء صوت زوجها يسألها عن أحوالها .. قالت إنها بخير وإن عليه ألا يقلق .. وإنها بانتظاره غدًا ..

ووضعت السماعة ..

هكذا ترون أن خطوط المأساة الإغريقية كانت مكتملة ، وما كان هناك سبيل للتراجع أو التظاهر بعدم الفهم .. لقد اختارت (كارولين) النهاية بنفسها .. وكان وضع سماعة الهاتف هو آخر دقة فى دقات طبول الإعدام الخاصة بها ..

والآن يرفع الرماة بنادقهم ينتظرون الإشارة كى ....

* * *

وغادرت (كارولين) المطبخ ، وقد عزمت على أن تظفر بحمام دافئ قبل أن تنام .. خرجت إلى غرفة المعيشة حين لاحظت شيئًا غريبًا .. لقد أغلق أحدهم جهاز التدفئة .. والطقس بارد حقًّا !

هى لم تفعل فمن فعل ؟

ثم شمت رائحة التبغ ، وفهمت أن هناك من كان يدخن فى هذه الغرفة منذ دقائق .. وأعجزها الذعر عن فهم معنى هذا ..

ـ « ماذا ؟ من ؟ من ؟ »

صرخت فى فزع وهى تنظر حولها ..

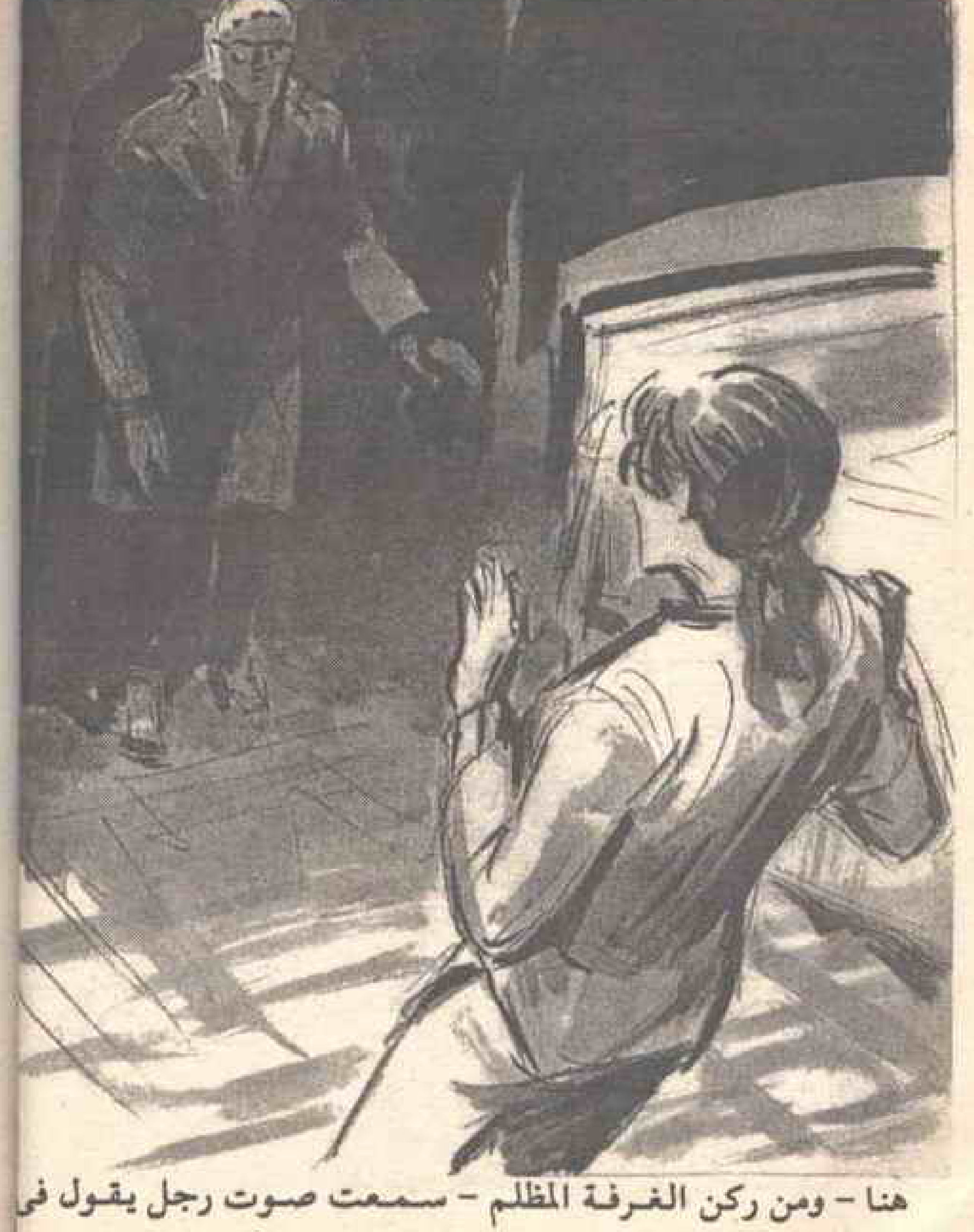
باب واحد نسيته صاحبته مفتوحًا لمدة نصف ساعة .. وكان هذا كافيًا كى يجده السفاح ويدخل .. باب واحد !

ـ « من هنا ؟ من ؟ »

هنا ـ ومن ركن الغرفة المظلم ـ سمعت صوت رجل يقول فى هدوء كأفعى تتسلل نحو عصفور غافل:

ـ « حاولى أن تتماسكى ! »

* * *



هنا - ومن ركن الغرفة المظلم - سمعت صوت رجل يقول فى هدوء كأفعى تتسلل نحو عصفور غاف : - «حاولى أن تتماسكى!» ..

٢ - نهار صاخب ..

تئز خلية النحل البشرية فى (سافارى) ، حتى تصمَّ الآذان وتسبب الصداع للجميع .. لكنها تترك - فى نهاية اليوم - حصيلة لا بأس بها من العسل ، يلعقه الأفارقة فى تلذذ .. وما أحوج الأفارقة لكل شىء !

تهدر التروس فى الاستقبال العام .. وتروس قسم الجراحة .. فالعظام .. فالعيون .. فالأطفال .. فالأشعة .. بينما الترس الأعظم (بارتلييه) لا يكف عن التوتر والقلق ..

لقد أحببت (سافارى) لأننى شعرت بحاجتهم إلىَّ هنا.. المكان الذى يمكن أن أكون مفيدًا فيه .. لم أنس وطنى وما زال حبه فى عروقى .. لكنى تمنيت لو شعرت مرة واحدة بأنه يحبنى بالقدر ذاته !

لقد فررت .. وفررت إلى أين ؟ إلى جحيم الأدغال الاستوائية .. فقط لأشعر بأننى ذو نفع .. وأن غيابى

يعطّل العمل .. وأن إهمالى يجلب المصائب .. وأن نجاحى يعنى .. يعنى النجاح !

★ ★ ★

فى عيادة الأطفال مع (برنادت) :

كنت مسرورًا راضيًا عن الحياة كأى هريرة فرغت من لعق فرائها ونامت فى الشمس .. وكانت (برنادت) مرحة منطلقة لا تكف عن الثرثرة وإلقاء الدعابات ..

ولأننى مصرى ؛ كنت أعرف ــ وأوقن ــ أن هذا السرور نهايته كارثة لاشك فيها .. المصريون شديدو الحساسية تجاه الضحك الزائد لهذا يرددون كلما ضحكوا عبارتهم الخالدة : « اللهم اجعله خيرًا .. » وبرغم هذا التطير لا يكفون عن الضحك ..

كانت (برنادت) عاكفة على فحص طفل انتفخ وجهه وجفناه ، حتى صار أقرب إلى البطيخة الناضجة .. وكان يبول دمًا ، مما يجعل تشخيص الحالة فى متناول أى طالب طب .. التهاب فى الكليتين غالبًا ما ينجم عن التهاب الحلق بالباكتريا السبحية ..

سألتنى وهى تدوّن بعض الملاحظات فى بطاقة المتابعة :

ـ « هل من أسئلة ؟ »

ـ « نعم .. هل سيعود هذا الشىء طفلاً ؟ »

ـ « لقد رأيت ما هو أسوأ .. »

وابتسمت وهى تدوّن العلاج فى البطاقة ، ثم طلبت من (بودرجا) أن يطلب من الأم أن تطلب من الطفل بعض البول ...

فعلها اللعين فى أنبوب اختبار صغير ، فتناولته (برنادت) وتأملته فى الضوء .. اللون الأسود الدخانى المميز للدم المُحطَم ..

أشعلت موقد (بنزين) ثم أضافت قطرات من حمض الهيدروكلوريك إلى البول ، وبدأت فى التسخين .. كانت قد اتخذت لنفسها معملاً صغيرًا فى الغرفة .. سألتها وأنا أرمق البول يبدأ فى الغليان :

ـ « ما جدوى هذا كله ؟ لِمَ لا ترسلين العينة إلى المعمل ولا داعى للصداع ورائحة البول المغلى هذه؟»

حركت فم الأنبوبة بعيدًا عن وجهى ، وهو ما يعرفه كل من يألف المعامل ولا يريد تفجير السوائل الساخنة فى عيون من حوله .. وقالت :

ـ « أريد معرفة ما إذا كان البول يحوى زلالاً ..

هذا اختبار سهل وبسيط لا يحتاج إلى إضاعة وقت المعمل .. »

هززت رأسى فى سأم وتأملت حامل الأنابيب أمامها..

كان أنبوب البول بما يحويه من سائل دخانى مسودّ فى موضعه بين الأنابيب .. إذن ما الذى تقوم هى بغليه الآن ؟

إن الأنبوب يحوى سائلاً رائقًا مصفرًا .. لقد أخطأت الأنبوب بينما هى منهمكة فى الكلام معى.. وحتى (هومير) يحنى رأسه ..

قلت لها باسمًا :

- « لحظة يا (برنادت) ! إن هذا الأنبوب ليس .... »

وفى الربع ثانية التالى لكلامى انفجر الأنبوب فى وجوهنا ...

* * *

لا شىء ! ما زلنا أحياء وأطرافنا سليمة ..

فقط كانت قطرات من السائل الحارق على وجهى ، ونظرت إلى معطفى الأبيض فوجدت ثقوبًا عديدة ..

اللعنة ! لقد قامت بتسخين حمض (الهيدروكلوريك) حتى انفجر - وهو يغلى - فى وجوهنا ..

هرعت إلى حوض الماء فغسلت وجهى وعينىّ .. ثم نظرت إلى الوراء لأرى الكارثة الجديدة ..

كان (بودرجا) وأم الطفل والطفل يتصايحون، وراحوا يبصقون ويحاولون مسح الحمض عن وجوههم..

- « (بودرجا) ! كف عن التواثب كالبراغيت ، واغسل وجهك ووجهيهما بالماء من الصنبور ..»

ثم نظرات إلى (برنادت) ! »

كانت منحنية على الأرض فى وضع شبيه بالسجود ، وهى تدارى وجهها وتنهنه دون انقطاع .. ورأيت على ظهر يديها قطعًا صغيرة من الزجاج المهشم مغروسةً فى اللحم .. جلستُ جوارها على الأرض وربّت على ظهرها محاولاً جعلها تقول شيئًا .. هلمى تكلمى أيتها الحمقاء ! فلتؤجلى هستيريا النساء هذه إلى ما بعد أن ألقى نظرة على عينيك لأتأكد أنهما هناك .

- « (برنادت) ! »

فلَمْ تردّ ..

- « (برنادت) ! »

هنا استجابت لصراخى لكنها لم ترفع كفيها عن وجهها ، وراحت تهتز بالبكاء مرددة :

- « عيناى ! عيناى ! »

- « دعينى أر .. »

لكنها ظلت مصرة على الانكماش .. لهذا فقدت أعصابى وانتزعت يديها قسرًا .. كان وجهها مليئًا بالجروح الصغيرة والحروق التى لم تتشوه بعد ، لكن عينيها كانت مغلقتين باحكام ..

نهضت واتجهت إلى زجاجة (بيكربونات الصوديوم) الموجودة على النضد ، فتأكدت من قراءة الاسم بعناية ثم أذبت بعضها فى الماء فى مخبار كبير وجدته هناك .. وعدت لها لأغسل وجهها وجفنيها بعناية ..

محلول (بيكربونات الصوديوم) هو العلاج الأمثل الأول للحروق الحمضية ، وحتى نعرف ما ننوى عمله بعد ذلك .. إن كل طالب يحترم نفسه يعرف أن
(حمض + قاعدة ← ملح + ماء) ..

ونظرت إلى (بودرجا) الذى فرغ من غسيل وجهه عشر مرات ، وقلت :

- « اتصل بقسم العيون .. يبدو أن هناك مشكلة خطيرة ..»

* * *

قليلة هى المرات التى دخلت فيها قسم العيون هنا .. صحيح أنه يضمَ عددًا لا بأس به من أطباء أكفاء ، لكنى كنت فى كل مرة ألقى (ابراهام ليفى) طبيب العيون الإسرائيلى ، وعلاقتى به كما تعلمون هى علاقة الثعبان بحيوان (المانجوست) ، أو علاقة الكلب والقط ..

وإذ جلست (برنادت) الدامعة ؛ فاتحة عينيها الحمراوين بينما (ليفى) يتفحص الأمور بمنظاره ؛ جاء لنا جراح أمريكى شاب ليلقى نظرة على جروح وجهها .. ويبدو أن (بارتلييه) أرسله بعد ما عرف بالحادث ..

سألتْ فى هلع :

« هل .. هل ستترك أثرًا ؟ »

قال لها باسمًا وهو ينتزع قطعة زجاج انغرست فى خدها :

- « لا .. لا .. إنها خدوش لا أكثر ولسوف لا تحتاج إلا إلى تطهير .. »

ثم تأمل وجهى ، وقال بجدية :

- « أما أنت .. فأرجو أن تلحق بى .. هناك حرق مقيت فى جبهتك .. »

تحسست جبهتى .. هذا غريب .. حقًا لا أشعر بأدنى ألم .. على كل حال لا توجد مشكلة هنالك .. إن حرقًا فى جبهتى لن يقضى على مستقبلى فى عالم السينما .. ثم إننى أحب الرجال ذوى الندوب فى وجوههم .. هذا يجعلهم يبدون أكثر حنكة وأعمق تجربة ..

صارحته بهذا ، فلم يبد مسرورًا ، وهزّ كتفيه بما معناه : كما تشاء .. لكنى كنت مشغولاً بالاطمئنان على (برنادت) التى راح (ليفى) يفحص عينيها بالمصباح الشقّى .. لم يبد مسرورًا جدًا بدوره ..

وسرعان ما استدار طالبًا رأى أحد الأساتذة ذوى الخبرة ، وراق لى هذا لأننى لم أكن على استعداد لأن أسأل الأول أى سؤال ..

راح الأستاذ الأسبانى ـ وهو من تلاميذ أستاذ العيون الأسبانى العالمى (باراكير) يتفحص عين الفتاة الكندية التى لم تعد حسناء جدًا .. ثم فى قلق غمغم :

ـ « لقد تضررت قرنيتاك كثيرًا .. »

سألته بدورى فى عصبية :

ـ « هل تعنى أنها ستكون عمياء ؟ »

نظر لى لائمًا .. وبلهجته الفرنسية التى يضغط على حروفها ، قال :

ـ « نحن لا نثب للحقائق بهذه السرعة أيها الشاب .. ثم نحن لا نثب إليها إطلاقًا حين يكون المريض جالسًا ومنصتًا وقلقًا .. »

ثم بلهجة أكثر اتزانًا قال :

ـ « سننتظر يا صغيرتى ونرى .. قد لا تترك الحروق أثرًا وهذا جيد .. وقد تترك أثرًا وهذا ليس سيئًا لان كل شىء يمكن إصلاحه فى مهنتنا هذه .. »

ثم أمر (ليفى) بأن يضع لها بعض قطرات العين والكورتيزون ثم يضمد عينيها .. لكنى جذبته من ذراعه صائحًا :

ـ « أريد أن تفعل أنت هذا ! »

فى ارتباك نظر لى ولـ (ليفى) عاجزًا عن الكلام ، ثم قال بعد ما فهم :

ـ « لا أرى ما يمنع من أن ...... إن د. (ليفى) ذو كفاءة والأمر سهل ...... »

ـ « أرجوك أن تفعل هذا بنفسك .. »

تراجع (ليفى) للوراء مفسحًا الطريق لأستاذه ، ورمقنى بعين نارية .. وفى تظاهر بالروح الرياضية قال :

- « لا عليك يا سيدى .. أن د. (عبد العظيم) يمقتنى بشكل شخصى .. كأننى قد قتلت أباه فى حرب حزيران ١٩٦٧ ! »

وجلس الطبيب الأسبانى يضمد عينى الطبيبة التى لم تعد حسناء للغاية .. ثم أشار لى كى أصحبها إلى غرفتها ، مع وعد بأن يعودها خلال يومين ..

متصلبة متعثرة الخطوات كما يحدث فى السينما انقادت (برنادت) لذراعى ونحن نتجه للباب .. خيل لى أننى سأشحذ بها الآن مرددًا : ساعدوا العاجزة يا أولاد الحلال .. خاطر مضحك لكنه غير مناسب طبعًا ..

(برنادت) يا صغيرتى .. هل سترين من جديد ؟

* * *

٣ - نهاية الخطّ

أما عن (جيمس ماكميلان) فقد انتظر نهاية الخطَ .. الحق أنه كان راغبًا فى النزول قبل ذلك بثلاث محطات ؛ لكن الألم الذى بدأ يتحرك فى صدره خلف عظمة القصّ جعله لا ينهض ..

لم يكن (ماكميلان) ممن يتوقعون أن تتخلى أجسادهم عنهم ، ولم يعتد الألم قط ويعتبره ضربًا من الإهانة أو الاستسلام ..

لهذا - حين شعر بالألم يعتصر فؤاده كقبضة عملاق خرافى - كان ردّ فعله الوحيد هو أن تجاهله أو حاول .. ثبت قدميه فى الأرض وضغط على أسنانه ، واحتشدت قطرات العرق على جبينه ..

سينتهى كل هذا .. سينتهى .. لا تحدث ضوضاء ..

كذا راح يردد لنفسه وهو يحاول أن يبدو طبيعيًا ..

بالطبع كان فى الوضع الذى يسميه الأطباء بوضع (انعدام الحيلة) المميز للنوبات القلبية ، وامتلأت راحتاه بالعرق ..

لكن شيئًا ما فى أعماقه قال لـه إن الأمر سينتهى سريعًا .. سينتهى .. هو موشك على الانتهاء ..

أخيرًا هـدأ الألـم .. حمل آخر جنـود الألـم عصـاه ورحل ، تاركًا سهولاً شاسعة يملؤها الإعياء والإرهاق..

لهذا نام ..

بضع دقائق نامها فى وضع الجلوس .. وحلم فى أثناءها بأن حياته كلها خطّ حافلة يدنو من نهايتـه .. وقد حان وقت النزول الآن ..

شعر بأنها توقفت فرفع رأسه ..

نظر إلى الأمام إلى حيث السائق ، فوجده ينظـر لـه نظرة متسائلة معناها : ماذا تنتظر ؟

أدرك أن هذه نهاية الخط حقًّا لا مجازًا ، فتحامل على ساقيه اللينتين واتجه للمقدمة كى ينزل ..

مبلبل الأفكار لا يفهم حقًّا أين هو .. لكنـه مرتبك إلى درجة أنه عاجز عن السؤال ..

هبط الدرجات إلى الشارع المظلم البارد ، ودس راحتيه فى جيب المعطف .. ورأى البخار يتصاعد من فمه كبالونات الكلام فى القصص المصورة ..

أين أنا ؟

رأى الحافلة تبتعد تاركـة إيـاه فـى هـذه البقعة المظلمة الخالية من العمـران .. يبـدو أنهـا إحـدى ضواحى (تورنتو) الصناعية .. لأن هنـاك مبنـى هـائل الحجم فى الأفق له مدخنتان ..

يا للغبـاء ! كـان يستطيع دومًا أن يعـود مـع الحافلة .. لماذا لم يفعل ؟ هذا هو بطء التفكير الذى جعل (نيوتن) يطلب من الخادم أن يفك لـه المدفأة من الجدار ويقربها منـه ، بدلاً من أن يدنـو بمقعده منها ! حتى (نيوتن) يمكنه أن يكون غبيًا أحيانًا ..

كيف يعود لداره ؟

هذه الليلة هو فى أمس الحاجة إلى الفراش الدافئ الوثير .. علّه ينسى أن أول ذبحة صدرية أصابته اليوم ..

هل يمشى لذلك المصنع الافتراضى ؟ تبًّا .. إنـه بعيد كأنما هو فى عالم آخر .. والمشى له يقتضى قطع ساحة شاسعة مظلمة لا تدرى ما تدوسه قدماك فيهـا .. يمكنك بسهولة أن تقع فى مجرور مفتوح أو تدعس ذيل كلب غاف لن يكون ردّ فعله سهلاً ..

يا للبرد .. يا للبرد ..

وكان يهاب المشى .. لقد قرأ كثيرًا عن الأشخاص المصابين بداء الذبحة ، حين يمشون فى البرد بعد العشاء .. كلها عوامل كافية لحفر قبره ..

كان هناك ضوء .. ضوء سيارة قادمة من بعيد ..

ولم ينتظر أكثر .. وقف فى منتصف الشارع وراح يلوّح بذراعيه قاطعًا طريق السيارة ليرغمها على التوقف ، ويرغم صاحبها على الاتصال ..

وأخيرًا رأى السيارة تبطئ على بعد خطوات منه..

راكبها يفتح الباب .. سيارة زرقاء اللون عتيقة لم يتبين طرازها ..

الأضواء مبهرة للعين لا تسمح له برؤية الراكب .. لكن لا بأس فى هذا .. فعلى صاحب السيارة أن يكون صاحب اليد العليا وأن يضمن جيدًا الراكب ، ويتفحصه على ضوء الكشاف قبل أن يسمح له بدخول حصنه الآمن ..

دنا من السيارة بتؤدة وهو يغمض عينيه متحاشيًا النور ..

الآن يمكنه أن يرى الراكب فيطمئن لمظهره .. إنه ذو شعر قصير وعوينات ، يمكن أن يكون مدرسًا أو محاميًا أو طبيبًا ..

كان يرمقه فى نوع من التوجس ، وراق هذا لـ (ماكميلان) .. جميل أن نخاف ثم ندرك أن الآخرين يخافوننا أكثر ..

انحنى والبخار يعلن عن لهاثه ، وقال :

- « معذرة سيدى .. لقد ضللت طريقى ها هنا .. ليس لدى أدنى علم باسم هذا المكان ولا كيفية العودة منه .. »

سأله السائق بصوت رخيم رصين :

- « وأين تسكن ؟ »

- « فى (جيربوا) أعتقد أنها تبعد ثلاث محطات ..»

« أربع محطات .. وعلى كل حال .. هى فى طريقى .. »

وبشىء من التردد فتح الباب المجاور له ..

لا بد أن يقتنع .. لا بد .. إننى أبدو محترمًا راقيًا.. لقد كافحت طيلة حياتى كى أبدو هكذا .. وأحيانًا أشعر بالرضاء .. هكذا فكر (جيمس) وهو يدس جسده فى المقعد المريح الدافئ جوار الطبيب | المدرس | المحامى .. يا لها من ليلة ! ليلة تبدأ بذبحة صدرية وتنتهى بالتوهان !

يا لها ليلة !

وانطلقت السيارة فى الطريق المظلم نحو (جيربوا) ..

وفى الدقائق التالية سيتعلم (جيمس ماكميلان) درسًا قاسيًا يقولونه للفتيات دائمًا لكنهم لا يقولونه للفتيان : لا تركب مع غريب أبدًا ..

فى الدقائق التالية سيعرف (ماكميلان) سر كابوس نهاية الخط الذى رآه وهو نائم فى الحافلة ..

سيتعلم شيئًا عن أساليب الخنق بسلك رفيع ..

لكنه لن يستفيد من كل هذا العلم بعد اليوم !

* * *

٤ - لحظة الحقيقة ..

تفحص عينيها بالمصباح الشقى ، محاولاً أن يضيع وقتًا قبل أن يحتاج إلى الكلام .. وهى مهمة ثقيلة كما نرى ..

لكنى - من دون أجهزة - كنت أدرك معنى ما أراه .. لقد تشوهت قرنيتا عينى (برنادت) ، وغطت كل منهما سحابة بيضاء رمادية متسخة أشبه بزجاج سيارة قذفه صبى شقى بكوب من (الجيلاتى) ..

كان تتعرف النور حين تراه .. وبصعوبة استطاعت أن تعلن أن عدد أصابع (ليفى) أمام وجهها هو ثلاثة .. بدا لى هذا جيدًا وإن كان العدد الصحيح هو أربعة ..

أخيرًا نهض البروفسور الأسبانى (رودلفو شافيز) متثاقلاً ، وجلس وراء مكتبه وقال منتقيًا كلماته :

- « الأمر واضح .. لم نستطع منع تشوه القرنية .. وهذا معناه بالطبع أننا بحاجة إلى جراحة لزرع واحدة .. »

كان أول ما خطر لى هو أن نظرت إلى عينى (برنادت) ، ثم تساءلت فى عصبية :

ـ « وهل سنجد قرنية لها نفس لون العينين الجميل؟»

تبادل النظرات مع (ليفى) لهنيهة .. ثم انفجرا ضاحكين ـ برغم قسوة الموقف وخطورته ـ وحتى (برنادت) ابتسمت ابتسامة جانبية حزينة .. وهنا تذكرت أننى بسبب لهفتى وقعت فى ذات الخطأ الذى يقع فيه الناس غير الملمين بالطب .. ليست قرنية العين هى ما يعطيها لونها بل ما خلف القرنية.. القرنية دائمًا عديمة اللون شفافة كالزجاج ..

ابتسمت فى خجل ، وقلت ما معناه إن الوقت ليس ملائمًا للدقة التشريحية، ثم عدت أسأل بصيغة أخرى:

ـ « هل سنجد قرنية أخرى لها ؟ »

قال (شافز) وهو يدوّن بعض الملاحظات :

ـ « حتمًا .. لكن تذكر أنه لا يوجد بنك عيون ها هنا .. لهذا سنبرق إلى البنوك المتخصصة فى (أوروبا) و (أمريكا) .. سيكون علينا أن ننتظر .. »

تساءلت (برنادت) فى لهفة وهى تفتح عويناتها السوداء توطئة للبسها :

ـ « هل سأعود لأبصر؟ هذا مؤكد .. أليس كذلك؟»

قال باسمًا :

ـ « بلى .. بلى يا صغيرتى .. لا توجد أسباب تجعلك لا تفعلين لمجرد أنك هى أنت .. »

ثم أشار لى كى أخرج بها من هنا ..

* * *

بالمنظار الأسود والمشية المتصلبة تأبطت ذراعى وخرجنا إلى الممر الواسع المؤدى لمكاتب الإدارة .. وكان هناك عدد من الأطباء يتكلمون فلما رأونا ساد جو من الوجوم ..

الحقيقة أن العمى شىء رهيب .. لكن حين يتعلق الأمر بـ (برنادت) بالذات يصعب على المرء أن يحبس دموعه .. إن الكل يحبها ها هنا .. فهى (رمز) لا يستطيع الإنسان أن يكرهه أو يحمل له الضغائن ، مثلها مثل (ميكى ماوس) و(شارلى شابلن) و(سندريللا) و(الخطيب) .. رمز لكل ما هو جميل ونقى وحيوى فى هذه الوحدة ..

وفى صمت الجنازات اتجهت إلى مكتب المدير ، وكان البروفسور (بارتلييه) ينتظر النتيجة فى فارغ



وكان هناك عدد من الاطباء يتكلمون فلما رأونا ساد جو الوجوم ..

الصبر .. فلما رأى وجوهنا استطاع أن يفهم دون جهد ..

حاول أن يبدو طبيعيًا لكن هذا زاد الأمر سوءًا ، ككل هؤلاء طبيبى القلوب الذين يتظاهرون بأنهم أكثر قسوة وأكثر عملية مما هم ..

وفى نهاية الجلسة الكئيبة التى أشعر فيها (برنادت) بمأساتها أكثر بمراحل مما لو قال لها : اجلسى أيتها العمياء ؛ قال لنا وهو ينهض :

ـ « إن نظام تأميننا محكم .. ومسئوليتنا هى علاج كل طبيب يصاب فى أثناء العمل .. لهذا تقف (سافارى) كلها وراءك يا (برنادت) ، وحتى تستعيدى حواسك .. »

ثم ضغط على زرّ جهاز (الدكتافون) طالبًا السكرتيرة ، وأردف بينما الأخيرة تفتح الباب ، وتقف فى تحفز مهذب :

ـ « سأبرق فورًا إلى مراكز زراعة العيون الشهيرة ، وسنعرف ما إذا كنا سنجرى الجراحة هنا أم فى الخارج .. ثم سأطلب من (شلبى) أن يبحث فى (الأنترنت) عن قاعدة معلومات زرع الأعضاء .. »

وابتسمت فى وجه (برنادت) ابتسامة لم ترها .. لكنها أحستها ..

دفء الابتسامة قد ينتقل فى الفراغ أحيانًا ..

* * *

وكنت قد اعتدت التردد على غرفة (برنادت) فى الآونة الأخيرة .. ما كان هذا ديدنى لكن الظروف جعلتنى اتجاهل تحفظى ، ومثلى فعل كثيرون وكثيرات من الأطباء هنا ..

اعتاد (بسام) التونسى أن يحمل لها شرائط (الراى) الصاخبة ، وكان ـ كالعادة ـ يرفع صوت الكاسيت إلى حدّ إصابتنا بنزف مخىّ .. لكنها كانت تحب ذلك وهذا كاف ..

أما أنا فكنت أجلس على الموكيت الوردى المميز لغرفتها ، وأقرأ لها أبياتًا من (أنت وأنا) وهو ديوان بالفرنسية لم أستطع أن أحبه قط برغم شهرته الساحقة .. إن فرنسيتى جيدة لكنها توقفت عند مرحلة (فهم الأدب) ولم تصل لمرحلة (تذوق الأدب) بعد .. وعلى كل حال كانت قراءتى الرديئة تملؤها سرورًا .. وهذا كاف ..

أحيانًا كانت طبيبة فرنسية تجىء لتثرثر معها .. وفى مرة جاء (ليفى) ليطمئن ، لكنى سددت باب الغرفة فى وجهه ، وقلت إنها بحاجة إلى راحة .. إنه يدعى اللطف .. هذا مؤكد .. وأنا لا أهوى الصائدين فى الماء العكر على كل حال ..

فى ذات مرة جاء البروفسور (بارتلييه) شخصيًا ، وحشر نفسه فى أريكتها الضيقة التى راحت تئن احتجاجًا ، وراح يسألها عن حالها وعن الوطن .. والحقيقة ـ كما لنا أن نتوقع ـ لم تمارس (برنادت) أى عمل مهم منذ الحادث .. وصارت عيادة الأطفال مسئولية الهندى (عملاق) ومسئوليتى ..

يجب أن أقول هنا إن حرقًا لا بأس بحجمه صار يشوه جبهتى .. صحيح أنه لم يجعلنى غولاً لكنه بالتأكيد لم يزدنى جمالا .. واعتدت أن أجعل خصلة من شعرى تتدلى على جبينى لتدارى هذا الحرق ، مما جعلنى أبدو رقيعًا مستهترًا للأسف .. الحق أنها كانت أيامًا عسيرة ...

* * *

هنا يسأل قارئ خبيث :

ماذا كانت مشاعرى بالضبط فى تلك الأيام ؟

الإجابة سهلة ويمكن توقعها .. كنت أشعر بأسى لكن يخالطه سرور لاشك فيه .. وهو سرور غير قاس إلى هذا الحدّ .

السرور طبعًا لأننى صرت جوارها دائمًا ، بل وصرت شديد الأهمية لها إلى حدّ أنها لا تطيق الحياة بدونى .. السرور - وسامحونى على قول كهذا - لأنها صارت ضعيفة إلى حدّ أن تحتاج إلى حمايتى ..

كان هناك نوع مريض من السرور لكننى سحقته فورًا .. السرور لأننى الوحيد الذى لن ينفر منها الآن .. والذى سيبقى جوارها حتى إذا رحل الأوغاد الآخرون ..

أعطيها عينى ؟ لا .. إن هذا قد يكون مقبولاً فى الأغانى العاطفية لكن لا مجال له فى الطبّ .. لا يمكن أخذ قرنية من عين إنسان حىّ ، ولو كان هذا ممكنًا فلن أوافق عليه .. إننى لم أصل بعد درجة الهيام التى تجعلنى أقبل بالعمى من أجل حبيبتى ..

تذكرت كلمة للساخر العظيم (أحمد رجب) يصف فيها كلام العشاق على غرار (خُذْ عينى يا حبيبى) ..

لو أن فتاة قالت هذا وأطاعها حبيبها وانتزع عينيها ، لخربت بيته ولزجت به فى مستشفى الأمراض العقلية ، ولامتلأت الصحف بأخبار الحادث الفظيع ..

لا يا رفاق .. لن أتبرع بعينى .. لكننى سأتبرع بكل دقيقة من وقتى وكل عاطفة نزقة فى صدرى .. فاطمئنوا ..

لن أتخلى عنها أبدًا ..

لكن هل يتخلى عنها الحظ ؟

* * *

٥ - حيث تنام النسور ..

وعلى الشاشة كان المسخ القادم من (منشوريا) قد أوشك على الفراغ من مهمته القذرة : جعل الحياة عسيرة بالنسبة للأبرياء .. لقد التهم رجلى الشرطة والتهم البطلة وأوشك على التهام المخرج والمصوّر ..

وارتجفت (سارة) وهى ترى المسخ للمرة الأولى يزأر فى وجهنا ، والدم ينساب من بين شفتيه المهترئتين المليئتين بالأنياب ..

فى السينما يكون الاندماج مع المشهد تامًا ، ويختلف كثيرًا عن رؤيته على الشاشة الصغيرة ، ربّما لأن السينما لا تترك حلولاً وسيطة : إما الشاشة وإما الظلام .. إنها تستولى على كل مجال رؤيتك وأفكارك فلا تترك لك فرصة لتتنفس ..

مدت يدها فى عصبية باحثة عن بعض الاسترخاء ، فاصطدمت بمعصم الرجل الجالس جوارها ، وهو من الطراز الاحتكارى الذى يضع كلتا يديه على جانبى مقعده ..

همست معتذرة وجذبت يدها ، وبلمحة بصر أدركت

أن جارها رجل فى الأربعين من عمره .. له شعر قصير وعوينات تلتمع فى ضوء الشاشة ..

قال فى صوت رزين هادئ :

- « لا عليك .. إنه فيلم مخيف حقًا .. وهذا الظلام يجعل الأشياء تبدو واقعية قريبة .. »

وعاد يواصل مشاهدة الفيلم ، وقد ترك فى نفسها انطباعًا لطيفًا مهذبًا لا بأس به ..

الآن يحاولون على الشاشة قتل المسخ باستعمال الديناميت ، والطلقات الحارقة .. لكنه - ككل وحوش السينما - يأبى أن يموت ..

وتدور بضع كلمات فى أثناء المشاهدة ، ثم تأتى تترات النهاية فينهض ويبتسم لها برقة ..

تأكد لديها الانطباع الحميم والدفء الذى يشعّه من حوله .. وحين دعاها إلى قدح من الشيكولاتة لم تمانع كثيرًا ..

كانت (سارة) تعانى الوحدة .. لقد تخلى عنها زوجها كى يتزوج سكرتيرته ، بعد ما صارحها وهو يلتهم الإفطار بأن زواجهما فشل .. وأنه لن يحاول ثانية لأن أحداً لم يستطع إحياء الموتى منذ عهد

الأنبياء .. صارحها بأن المرء له حياة واحدة لا تتكرر ، وهو غير مستعد للتضحية بهذه الحياة لمجرد إسعادها .. صارحها بأن لقاءه بسكرتيرته هذه قد تأخر بعض الوقت .. لكن هذا الخطأ يمكن تصحيحه الآن .. صارحها بأنها ما زالت جميلة ولربَما وجدت رجلاً آخر ..

قال لها هذا كله وهو يلتهم طعام الإفطار ..

حسن .. لم تمت (سارة) ولم تجن .. لكنها اصطدمت بالحقيقة المريرة لامرأة تتعلم للمرة الأولى أن تعيش وحدها ..

كان الغريب رقيقًا .. وقد أصغى إليها باهتمام ، وهى تحكى له كل هذا .. لربَما شجعها أنها لن تراه ـ فى الغالب ـ ثانية ..

أصغى إليها باهتمام وقال أشياء مماثلة عن نفسه ، وكانت تعرف أنه معذَب .. هذا واضح من عينيه المهزومتين فى بسالة وروح رياضية عالية .. ومن السهل أن يحبَ المرء المهزومين الباسلين ..

وبعد ما فرغ قدح الشيكولاته كانا قد صارا صديقين للأبد ..

ثنى ذراعه فى رشاقة ، ودعاها إلى أن تولج ذراعها فى الفتحة التى صنعها ذراعه ففعلت .. ومعًا غادرا الكافتريا ..

ـ « هل معك سيارة ؟ »

ـ « لا .. وأنت ؟ »

ـ « إنها فى ساحة الانتظار جوار دار السينما .. »

عظيم ! لا حاجة لأن تركب الحافلة لاعنة زوجها السابق الذى أخذ معه سيارة الأسرة حين رحل .. سيارته دافئة ناعسة تنتظر وهى تنقل ساقيها من البرد فى ساحة الانتظار ..

أدركت من مظهر السيارة العتيق أن أحواله المالية ليست رائجة جدًا .. ولم تستطع أن تميِّز طرازها .. لكنه أخبرها أنها من طراز نادر من (الفورد) .. ربَما هو الوحيد الذى يملك سيارة كهذه فى (كندا) كلها .. وهو فخور بها ..

قالت لنفسها فى حبور :

ـ « الرجل الذى يتمسك بهذه السيارة العتيقة ويحبها ، ليس من النوع الذى يحب سكرتيرته ويترك زوجته من أجلها .. »

ثم سألته السؤال الأنثوى الخالد :

ـ « هل تحب اللون الأزرق ؟ »

ضحك وهو يفتح لها الباب أولاً قبل أن يركب هو :

ـ « ليس اختيار لون السيارة حسب الذوق أمرًا حتميًا .. أحيانًا تختارين السيارة ـ دون اهتمام باللون ـ لأن سعرها يناسبك ، أو لأنها الوحيدة من الطراز الذى تحبينه .. »

ـ « لم تجب سؤالى .. »

ـ « الأزرق ! » ـ وتنهد كأنما يحلم ـ « إن من لا يحب الأزرق هو أحمق ولو لم تكن السماء والمحيطات زرقاء فكيف كان العالم سيبدو وقتها ؟»

ضحكت كثيرًا وهى تتخيل نفسها تسبح فى مياه حمراء تحت سماء أرجوانية أو خضراء .. ثم راحت تتفحص السيارة فى اهتمام .. ما كان هذا عن فضول قدر ما هو شعورها بالحق فى معرفة كل شىء عن هذا الرجل .. إن له عيوبًا .. كل الرجال لهم عيوب ؛ وكلهم يدارونها فى اللقاءات الأولى .. لكنها تستطيع أن تعرف الكثير عنه بهذه النظرة الفاحصة ..

مدت يدها إلى (التابلوه) والتقطت لفافة من

السلك المعدنى الرفيع .. وسألته وهى تتأمل الطريق المظلم :

ـ « ماذا تفعل بهذا ؟»

ـ « ليس لتنظيف الأسنان بالتأكيد .. إن هذه ـ يا عزيزتى ـ سيارة عتيقة .. والسيارة العتيقة تتعطل دائمًا حيث لا ينبغى أن تتعطل ، محدثة ما لا ينبغى أن يكون من متاعب .. »

ـ « أنت تهوى الميكانيكا ؟ »

ابتسم فى مرارة وقال :

ـ « لنقل إننى أهوى إعادة الأشياء الفاسدة إلى الصواب ! »

عادت تسأله كطفل فضولى :

ـ « وما دور هذا السلك ؟ »

ـ « هناك أشياء تفسد .. عندها تدركين أن من المفيد للمرء أن يحمل أى شىء .. قطعة سلك .. مدية .. مفك .. حلقات مطاطية .. لا بد من سعة الخيال فى هذه الأمور .. »

نظرت إلى الطريق ، وتساءلت :

ـ « إلى أين أنت ذاهب ؟ »

- « يا له من سؤال ! إلى بيتك طبعًا .. »

- « لكنى لم أقل لك عنوانى بعد .. »

نظر لها فى دهشة ، ولا شعوريًا داس الفرملة فكاد رأسها يرتطم بالتابلوه ، ثم داس على الوقود وهو يغمغم ضاحكًا :

- « أحقًا لم تفعلى ؟ لقد تصورت أنك قلت لى أين .. »

- « إذن أنت تملك موهبة التخاطر .. »

- « حقًا ظننت أننى أعرف من أين يجىء أمثالك .. »

ونظر إلى السماء كأنما يبحث عن لفظ شاعرى مناسب :

- « جئت من حيث تنام النسور ، ويحلم النمل الأخضر ! »

ابتسمت فى رقة .. لقد كان ذكيًا بحق سريع الخاطر :

- « حيث تنام النسور ! يا له من عنوان ! وأين هو ؟ »

قال وهو يقود السيارة إلى ممر جانبى مظلم بين الأشجار :

- « هنا ! »

رأت الأشجار تلتمع فى ضوء الكشافات كأنما هى شهود على مأساة ، وذلك الصمت الرهيب المخيف .. ثم توقف نهائيًا ..

قالت محتجة :

- « لماذا جئت ها هنا ؟ ليس هذا ...... »

قال وهو يمدّ يده ليلتقط لفافة السلك من التابلوه :

- « إننا هنا بالضبط فى المكان والزمان المناسبين ! »

* * *

حقًا كل الرجال لهم عيوب ..

وفى اللقاء الأول عرفت (سارة) - مبكرًا جدًّا - عيب هذا الغريب اللطيف .. إنه يهوى الميكانيكا واللون الأزرق وخنق الفتيات بسلك معدنى رفيع ! وهى هواية غريبة بعض الشىء ..

كل الرجال لهم عيوب ..

لكن هناك عيوبًا لا يمكن التسامح معها أو تجاهلها !

* * *

٦ - سأعود سالمة ..

بعد شهرين أعلنت (برنادت) أنها عائدة إلى (كندا) لتمضى الأشهر الثلاثة التالية بانتظار الجراحة ، كانت مصرةَ على أن تجريها فى (كندا) حيث يوجد بابا وماما ، وحيث تستطيع أن تطمئن للجراحين ..

فهمت منطقها .. فأنا نفسى أرفض أن يجرى لى طبيب غير مصرى جراحةً .. يخيل إلىّ أن اللحم المصرى لا يستجيب إلا لمبضع جراح مصرى ..

إن هناك حوارًا غير مسموع بين الاثنين .. والمصرى فقط هو من يفهم استجابة الأنسجة المصرية وشكواها ..

من حق (برنادت) إذن ألا تسلم عينيها إلا لجراح كندى ..

أما عن فترة الأشهر الستة ، فقد علمت أنهم لا يجرون زرع القرنية إلا بعد فترة استقرار كامل مدته ستة أشهر ، لا تلتهب فيها العين ولا تمرض ..

إذن لا مفر للبائسة من أن تتحمل العمى ثلاثة أشهر أخرى ..

* * *

وجاء (بابا) إلى (الكاميرون) ليعود بها إلى الوطن ..

رجل الأعمال الكندى (مايكل جونز) يصل إلى (سافارى) باحثًا عن طفلته التى لم تعد ترى تقريبًا ..

ومن اللحظة الأولى شعرت بمقت شديد للرجل .. فهو فى منتصف العمر - يبدو أنه تزوج مبكرًا جدًّا - متأنق إلى حدّ يحطم الأعصاب ، وأنا أمقت الآباء المتأنقين أكثر من اللازم ، لأنى أشعر أن هذا على حساب أبوتهم ..

ثم هو معتدّ بنفسه ينظر للجميع نظرة تعال سمجة، ولا يصافح أحدًا أبدًا . وكان يتصرف بطريقة عملية متعجلة لا تخلو من قلة الذوق و (الجليطة) .. كأن يقول : أوكى .. هل أعددتم كل شىء ؟ إذن يمكننى أن آخذها الآن ..

وقدمتنى (برنادت) له باعتبارى أصدق صديق لها هاهنا ، فكان كل مافتح الله عليه به هو :

- « آها .. إذن ما كان يجب أن تدع هذا يحدث »
ثم أدار ظهره لى ليواصل الكلام مع بروفسور (بارتلييه) !
سألتنى وهى تتأبط ذراعى مبتعدة :
- « هل أحببت بابا ؟ »
- « جداً ! إنه لطيف كالملينات بالنسبة لمرضى الإمساك .. »
ضحكت حتى سالت الدموع من تحت عويناتها السوداء ، وقالت :
- « كثيرون مدحوه لكن هذا أول مديح من نوعه! »
سألتها وأنا أنظر للوراء لأرمق الرجل يدلى بتعليماته :
- « غريب أن تحملى أنت جينات هذا الرجل .. لا بد أن أمك لطيفة كالنسيم .. »
- « هذا صحيح .. »
وراحت تحكى لى كيف أن أباها كان يريدها فى فلكه للأبد .. يختار لها عملها وزوجها وكل شىء .. لكنها قررت أن تختار ما تريد .. وأصرت على أن تكون طبيبة - وهذا جعله يجن - ثم على أن تصير

طبيبة فى إفريقيا الاستوائية - وهذا جعله يتحول إلى شعلة ملتهبة - وكان رأيه شبيهاً برأى أصدقائى حين عرفوا أننى ذاهب إلى (الكاميرون) :
- « ستعودين بالجذام ما لم تلتهمك الأسود أولاً .. »
هنا نظرت فى عينيه ، وضغطت على حروف كلماتها :
- « أبى أرجوك .. دعنى أجرب »
فلو كان هذا من أفلام (يوسف وهبى) القديمة لصفعها صفعتين ، ولأمرها أن تذهب - عليها اللعنة - بعيداً .. لكن فى (كندا) تختلف الأمور نوعاً : هز كتفيه .. وقال لها : أوكى .. يمكنك أن تجربى لكن سيكون استقلالك المادى مطلقاً .. أنت ترفضين الحياة كما أريد لك ، لهذا دعينى أعش كما أريد لنفسى ..
وجاءت (برنادت) إلى (سافارى) وقد تحلت بكل ما هو جميل فى أمها وتخلت عن كل ما هو مقيت فى أبيها .. تعاملت فى مرح ودون تعال .. وانحنت لتداوى جروح الأطفال السود الذين تقرحت أقدامهم ، وسقط قيؤهم على معطفها الأبيض الأنيق فلم تتأفف ..
كانت سعيدة .. سعيدة حتى قررت أن تغلى حمض (الهيدروكلوريك) لتتأكد من خلوه من الزلال ....

قالت لى :

ـ « إنهم يسيئون فهم بابا .. إنه طيب كالأطفال .. ولم يستطع فهمه أحد سواى »

ـ « وأمك ؟ »

ـ « لم تستطع .. لهذا هما منفصلان منذ عشرة أعوام »

لكننى لم أستطع إبعاد الفكرة الرهيبة عن ذهنى : صورتى وأنا جالس فى صالون دارهم بـ (أونتاريو) مع (الحاجَة) .. أقدم تقريرًا عن ظروفى المادية لأبيها .. وهو يصغى فى ملل ، وفى عينيه نظرة اتهام صامتة .. حقًا ستكون مهمة صعبة نوعًا ، حتى لو اشتريت علبة شيكولاتة من (جروبى) قبل الزيارة ..

ثم من قال إنها ستقبل ؟!

إن (برنادت) شمس .. شمس تشرق على الجميع وتمنح دفأها للجميع ومن الخطأ أن يحسب أحدهم هذا الدفء ملكه وحده ، فإن حاول أحدهم أن يستحوذ عليه لنفسه فالجنون والعمى نصيبه ..

كل ما بوسعى أن أفعله هو أن أصافحها فترة أطول من اللازم ، وأقول لها وأنا أكتم دمعة :

ـ « نحن بانتظارك سالمة .. »

قالت وهى تحرّر يدها فى تهذيب :

« اعتن بنفسك يا بنىّ .. ولا تحاول غلى أنابيب البول حتى أعود ! »

وفى مرارة ضحكتُ ..

وفى لوعة ضحكتُ ..

* * *

تبًا لـ (سافارى) !

تبًا لوجوهكم الكالحة ـ يا أصدقائى ـ تحيط بى كل يوم وفى كل مكان كوجوه ضباع فرغت من فورها من التهام جيفة !

تبًّا لروائحكم العطنة ـ يا أصحابى ـ وأحاديثكم المملة ، ونكاتكم السمجة ، ومشاغلكم الكئيبة !

تبًا لوجودى معكم ولوجودكم معى .. ولكل دقيقة أنعم فيها برؤية سحناتكم الكفيلة بإفزاع الشيطان ..

إن (سافارى) لم تكن قبل (برنادت) ..

ولن تكون بعد (برنادت) ..

* * *

وقال لى (بسام) وقد لاحظ عصبيتى ، وضيق صدرى ، واكتئابى الدائم :

ـ « وقد يجمع الله الشتيتين بعد ما ..... »

نظرت إليه فى حيرة .. واضح أننى صرت أحمل لافتة على جبينى تقول بكل اللغات ، الرجا عدم الإزعاج .. أنا متضايق لرحيل (برنادت) !

قال لى وهو يتأبط ذراعى نحو غرفة العمليات الجراحية ، حيث كان موعدنا اليوم :

ـ « إنها ستعود حتمًا .. فما هى المشكلة ؟ »

ـ « وقد لا تفعل .. ربَما نجح الأخ (مايكل جونز) فى اقناعها بعد إضاعة وقتها وسط هؤلاء المخابيل .. ربَما نجح فى تزويجها .. ربَما لن تسترد بصرها أبداً ويكون مستقبلها الطبى قد انتهى ..»

قال وهو ينزع معطفه توطئة للتعقيم :

ـ « ربَما .. ربَما .. (ربَما) هذه لا تكفى للاكتئاب .. ربَما تكفى للقلق لكن ليس الاكتئاب .. ثم إنك صرت بخيلاً جدًا هذه الأيام .. »

كدت أسأله عن مظاهر بخلى ، ثم تذكرت أن (بخيل) فى العامية التونسية تعادل (كسول) عندنا .. قلت له وأنا أنزع معطفى بدورى .

ـ « أعدك أن أكف عن البخل يا أخ (بسام) .. أعدك .. »

* * *



قالت وهى تحررَ يدها فى تهذيب :

«اعتن بنفسك يابنىّ » ..

٧ - اشتروا صابون (إليجانس)

اشتروا صابون (إليجانس) !

يا لكم من حمقى ! يا لكم من أشرار !

أمرَ بالبيت تلو البيت حاملاً حقيبتى ، فأقرع الجرس .. وأتجنب عضة قاتلة من الكلب ، وأبدأ فى شرح مزايا هذا الصابون كريه الرائحة ، عندها يغلق الباب فى وجهى ، أو تهزّ ربة البيت رأسها باسمة وتعتذر لأنها تستعمل صابون كذا ..

اشتروا صابون (إليجانس) يا بخلاء !

انفقوا كل قرش معكم على شرائه ، وقولوا لجيرانكم وأصدقائكم إن الآن قد جاء لشراء صابون (إليجانس) ..

* * *

لا بد أن البائع المجول قد فكر فى أشياء كهذه ، وهو يرفع إصبعه ليقرع جرس ذلك البيت فى (تورنتو) .. وهو بيت ككل البيوت فى الجيرة :

حديقة .. منزل من طابقين .. صندوق بريد .. وسيارة زرقاء عتيقة ..

بعد دقائق انفتح الباب، وتأمل صاحب الدار البائع..

كان البائع يبدو كبائع .. كل هؤلاء الجوالين فى الخارج يرتدون قبعة وسترة مزخرفة بالمربعات .. وكلهم ينساب عرقهم ، فينزعون القبعات لتظهر الرءوس الصلعاء .. وكلهم يحملون ذات الحقائب التى تشبه حقائب (المزيّنين) عندنا فى مصر ..

أما صاحب الدار فكان يبدو كمحام أو معلم أو طبيب .. له جبهة ضيقة وشعر رأس قصير ، وعلى أنفه عوينات غليظة نوعًا ..

قال البائع العبارة التى استخدمها عشرين مرة اليوم ..

- « مرحبًا سيدى .. ترى هل شعرت يومًا بحاجتك إلى صابون ذى رغوة كثيفة كى ...... »

تأمله الرجل وتأمل الحقيبة ثم قال :

ـ « أنت تبيع الصابون ؟ »
ـ « حقًا سيدى .. »
ـ « غريب ! »
ـ « لا أفهم وجهةَ نظر سيدى .. »
ابتسم الرجل فى مرارة ، وحكَّ شعره القصير ..
ـ « أنا لم ألق قط من يبيع صابونًا .. لا أحد ينتظر الصابون فى داره .. بل يذهب المرء إلى البدّال ليشتريه .. وعلى كل حال أنا لا أجد فارقًا بين نوع وآخر .. »
هنا تحرك التاجر ليلوّح بسلعته متحمسًا ، وقد تحركت كبرياء المهنة :
ـ « لهذا أنا هنا يا سيدى ، لأوضح لك معنى الصابون الجيِّد .. »
ثم اختلس نظرة إلى داخل الدار ، وتساءل :
ـ « هل فى الدار سيدةَ ؟ »
ـ « إننى أعيش وحدى .. »
ـ « إذن يمكننى أن أحدثك حديث رجل لرجل ......»

وراح يعدّد مزايا صابون (إليجانس) فى حماس يوشك أن يكون دينيًا .. لكن الرجل بدا شارد الذهن ، وانتظر حتى انتهى هذا من أكثر كلامه فسأله :
ـ « اسمع .. تبدو مرهقًا .. تعال وأشرب شيئًا باردًا ثم نتكلم عن صابونك السحرى هذا .. »
شعر البائع بالدهشة .. فقد اعتاد سوء المعاملة والطرد ، حتى إن أيةَ بادرة مهذبةَ كانت تشعره بعدم الارتياح ..
لكنه قال لنفسه : الدنيا لم تخل من خير بعد ، ولحق بصاحب الدار إلى مسكنه ..
كان المسكن أنيقًا مريحًا .. وجلس فى (لوبى) تفوح فيه رائحةَ عطرةَ مجهولة المصدر .. يبدو أن هناك تناقضًا فى حياة هذا الرجل .. إما هو ثرى لكنه لا يعبأ بالسيارات الجديدةَ ، وإما هو متوسط الحال لكنه اقترض كى يجعل منزله فاخرًا ..
تأخر صاحب الدار بضع دقائق كانت كافيةَ للبائع كى يلقى نظرةَ فاحصةَ وقحةَ على كل شىء : على الستائر الفاخرة .. على البساط الإيرانى السميك .. على البيانو الأسود فى الركن .. على الصور الملونة التى تملأ الحائط وتمثل مراحل مختلفة فى حياة طفل..

فى النهاية جاء الرجل حاملاً كوبين من عصير الليمون البارد ، فناول البائع واحدًا ، وجلس أمام البيانو وهو يدير كوبه بين يديه ..

وسأله وهو لا ينظر إليه :

ـ « حدثنى عن الصابون أكثر ! »

رشف البائع بعض الليمون .. كان باردًا شهيًا .. وبرغم أن الطقس كان باردًا فإنه ـ ككل الباعة الجائلين ـ كان يشعر بالحرَ طيلةَ الوقت لهذا جرع جرعةً كبيرة وقال :

ـ « تبدو لى من المهتمين بالصابون يا سيدى .. »

ـ « إنه موضوع مثير والحق يقال ..»

مدَ البائع يده فى حقيبته وأخرج قطعة أخرى من (إليجانس) ولوَح بها فى الهواء وقال :

ـ « إن هذه الصابونة مثقوبة .. وهذا يعنى أن ما يذوب منها يسيل إلى أسفل ولا يتراكم ليؤدى إلى قصر عمر القطعة .. هل تعرف معنى هذا ؟ »

وانحنى للأمام فى خطورة ، وقال :

ـ « معناه أن هذه الصابونةَ تعيش ثلاثة أضعاف عمر أية صابونة أخرى.. ومعناه كذلك أنها توفَر لك مالك ..»

بدا الاهتمام على صاحب الدار :

ـ « هل تقول هذا لتدهشنى فقط ؟ »

ـ « بل هى الحقيقة .... إننى .... »

ثم أدرك أن هناك شيئًا على غير ما يُرام ..

إن تركيزه يقلَ والكلام يبدو أكثر عسرًا .. كأن لسانه مربوط إلى فكه .. وكأن .. عجبًا ! حاول أن ينهض فلم يستطع .. كأنه يأمر جسدًا آخر غريبًا عنه ..

ـ « إنه المخدَر فلا تقلق ! »

قالها صاحب الدار وهو يواصل ارتشاف الليمون دون أن ينظر إليه ..

ـ « مـ .. مخدَر ؟ مـ .. ماذا تـ .. تعنى ؟ »

ـ « مخدَر ! لا تكن طفلاً .. لا بد من مخدَر فى عصير الليمون ! »

قالها صاحب الدار وأردف وهو ينظر لساعته :

ـ « لقد بدأ العمل سريعًا .. إننى بحاجة لاستسلامك التام فى أثناء الجراحة ! »

لكن البائع لم يسمع ـ لحسن حظه ـ العبارة الأخيرة ..

* * *

٨ - أنتظر!

عزيزى (علاء) :

أرجو أن تكون على ما يُرام تكون قد أحببت الصور التى أرسلتها لك والتى لم أرها للأسف ، لكنها تظهر بحيرة (سوبريور) التى يقع نصفها فى (كندا) ونصفها فى الولايات المتحدة الأمريكية ..

كيف حال وحدة (سافارى) ، وما هى أخبار انتصارات الملاريا المتواصلة ؟ تُرى كم مريض (إيدز) توفى ، وكم مريض فيل شفى فى أثناء غيابى ؟

الحياة تستمر حتى حين لا نكون نحن موجودين !

حقيقية قاسية أكرهها ولا أصدقها .. لكنها حقيقة ..

حقًا تستمر الحياة بعد رحيلنا .. حقًا ستظل السماء هناك والبحر .. ولسوف يضحك الأطفال وتغرد الطيور .. أبدًا لن يتوقف شىء إرضاء لغرورنا البشرى التقليدى ..

* * *

لقد قام أطباء عيون كنديون بفحصى ، وقالوا إن الحالة غير ميئوس منها .. لسوف تتم الجراحة خلال أسابيع ..

أما بخصوص سؤالك عن توافق الأنسجة ، فأنت كالعادة تنسى البديهيات يا (علاء) .. القرنية خالية من الأوعية الدموية تمامًا ولهذا هى شفافة(*) .. وبالتالى لا توجد بها خلايا بيضاء من التى تهاجم الأنسجة المزروعة لتدمّرها .. لهذا من النادر أن يحدث رفض لمزارع القرنية ، ولهذا تنجح جراحات زرع القرنية أكثر بمراحل مما تنجح جراحات زرع الكلى والقلوب والأكباد ..

هذا يفسر لك لماذا لا يشكل اختبار توافق الأنسجة عقبة هنا ..

* * *

وتعتمد جراحات القرنية على العثور على قرنيات

(*) يحدث استثناء لهذا مع نقص فيتامين (ب ٢) حين تغزو الأوعية الدموية القرنية ، وتحدث عتامة لها ..

صالحة شفافة يمكن أن نثبتها بدلاً من القرنية السليمة ..

فى العادة يأخذون هذه القرنية من عين متوفى حديث .. فيتم انتزاع عينه ، وتوضع فى مزرعة مناسبة مثل (ماكارى - كاوفمان) حيث تحفظ القرنية بحالة جيدة لمدة أربعة أيام ..

وقد يتم الزرع مباشرة دون مزرعة لو تم فى غضون ساعات ..

وفى أكثر دول العالم الغربى ، توجد بنوك للعيون يتم فيها حفظ عيون المتبرعين ، أو الموتى ناقصى الأهلية الذين لم يموتوا بمرض عصبى غامض ، ويتم تطبيق أساليب حفظ معقدة تسمح بإبقاء القرنيات سليمة لفترات طويلة حتى يحتاج إليها جرّاح ما ...

فإذا جاء وقت الجراحة ، انتزع جراح العيون القرنية العليلة ، ثم يقوم بزرع القرنية الجديدة بكاملها ، أو يزرع جزءًا من سمكها .. ويخيطها إلى العين المريضة ...

من النادر أن تفشل هذه الجراحة فى الوقت الحالى،

ما لم يكن الطبيب أو المريض منحوسًا .. وإننى لأتساءل عن حظى وحظ الطبيب ..

وهكذا أنا انتظر ..

أنتظر فى فارغ الصبر أن يموت شخص ما لأظفر بقرنيتيه ! هل هذا قاس ؟ ربّما .. لكن العمى أكثر قسوة .. على كل حال أنا لن أقتل أحدًا .. إن من سيمنحنى البصر إما ميت فعلاً أو سيموت فى الأيام القادمة ..

إننى مفعمة بالأحلام والمشاريع يا (علاء) .. مُفعمة بها ولا أتصور أن يحرمنى حمض الهيدروكلوريك الساخن من كل هذا ..

رباه ! أنا بحاجة لعينى .. بحاجة إليها لأن (هناك مواعيد يجب أن أحفظها ، وأميالاً يجب أن أقطعها قبل أن أنام ..) ..

هل تقرأ الشعر الإنجليزى ؟ أعرف أنك لا تحب الشعر غير العربى أصلاً .. لكن حاول من أجلى أن تستعيد هذه القصيدة ..

حافظ على نفسك من أجلى لأننى فى أمس الحاجة

إلى صـــديق .. وأنت صـديق حقًـا يـا (عـلاء) .. الرجل الوحيد الذى لم ينظر لى فى هيام مسبلاً عينيه ليصارحنى كم أنا فاتنة !

معك أنـا علـى طبيعتـى ، وأعرف جيدًا أنك علـى طبيعتك ..

حـافظ على نفســك ، ولسـوف أعـود لـك بعينين جديدتين ..

* * *

قرأت خطابهـا ، وشممت رائحـة عطرهـا المميز تفوح من الورق ..

هاتان دمعتان ! أشعر بهما تبللان لحيتى المحيطة بفمى .. متى ذرفتهما ؟ لا أدرى ..

لماذا ذرفتهما ؟ ربَما بسبب الحنين ، وربَما بسبب الكلمات الشبيهة بالسيف يقطع أى خيط أحلام :

« الرجل الوحيد الذى لم ينظر لـى فى هيام مسبلاً .... »

« معك أنا على طبيعتى وأعرف جيدًا أنك ....»

إنها لم تفهم قط ..

تُرى ما هو الأفضل لى ؟ صديق لاخطر منـه فيمـا يتعلق بالحب ، أم لا صديق لكنه خطر ؟ كانت الملكات يعـاملن عبيدهـن فـى تحـرر ودون كلفـة .. فهـل هـذا أفضـل أم الأفضـل أن أكـون عـدوًا غـامضـًا يتحفظـن أمامه ؟ أليس هذا أدنى للكرامة والكبرياء ؟

تبًا لكل هذا السخف ! فليس الأوان أوانه ..

دعوها تبصر أولاً ثم نتكلم فيما بعد ...

* * *

لماذا لاتنقضى هذه الأيام ؟

* * *

٩- سنة عشر!

فـوق التـلّ عنــد زاويـة شـديدة الخطـر ، أوقـف سيارته ..

كان الظلام دامسًا قديرًا على جعلك تجتاز الهاويـة بسيارتك دون تردّد ، لكنه كان يعرف المكان جيدًا ..

وعلى ضوء الكشافات وقف يرمق ما عند قدميه .. الهاويـة السحيقة كإحدى حفر سقر .. إنهـا تناسـب غرضه ..

ما كـان يهـوى إخفـاء الجثث ، فالعـلانيـة هى شعاره .. ولشدّ مـا يروق لـه أن يذهب النـاس إلـى أعمالهم أو يفتحوا بابًا موصدًا ليجدوا عملاً فنيًا من أعماله : جثة مشوهة فى الغالب .

لكنه ـ فى هذه المرة ـ كـان يشـعر بـأن اللعبـة قد انتهت .. ولم يجد فـى نفسه مزاجًا للتقيد بحرفياتها فى هذه المرة ..

فتور غريب يغمره تجاه الأمـر برمتـه .. لقد كـان مجنونًا حين شعر بمتعـة فى هـذه اللعبـة الجهنمية ..

واليوم لا يشعر سوى بما يشعر به الشبعان بعد مأدبة حافلة دسمة .. إنـه يجلس إلى المـائدة منهكـا تعسـا عديم الحيلـة يلوى المغص أحشـاءه ، ولا يطيـق أن يذكر أحد أمامه كلمة (أكل) مرة أخرى ..

فتـح المقعـد الخلـفى وجـرّ جسـد عامـل الهـاتف النحيل .. تصوّر هذا ! وضعه فى المقعد الخلفـى لأنـه لم يجد فى نفسـه حماسـة لفتح حقيبة السيارة ، وهو ما كان ليكلفه حياته لو أن شرطيًا استوقفه فى أثنـاء رحلتـه الطويلة .. لكـن ـ الحقيقـة ـ ما عـاد يهـاب شيئًا ..

جرّ الجسد فوق الأرض الصخرية حتى أراحه على حافة الهاوية .. ثم ركله ركلة واحدة فتـدحرج كجـوال البطاطس إلى أسفل .. ربع دقيقة ثم سمع الارتطام ..

هذه جثة لن يجدها أحد ..

ربمـا بعد عشـرة أعـوام يجـدون أسـفل التـلّ هيكـلاً عظميًا لا يعرف أحد صاحبه ..

* * *

ولم يعد لداره ليلتها ..

ظلّ يجوب الشوارع بسيارته عاجزًا عن فهم سرّ حيرته ..

توقّف عند ناد ليلى ليشرب شيئًا ..

كانت هناك شقراء راغبة فى اللحاق به ، وهى فرصة نادرة .. إن عنقها طويل نحيل يصلح للخنق بشدّة .. لكنه ارتجف لمجرّد الفكرة وشعر بغثيان شديد ..

ماذا حدث ؟ هذه فرصة ما كان ليفوّتها لو جاءته أمس ..

أما اليوم .. فهو يشعر بفتور شديد وكآبة قاتلة ..

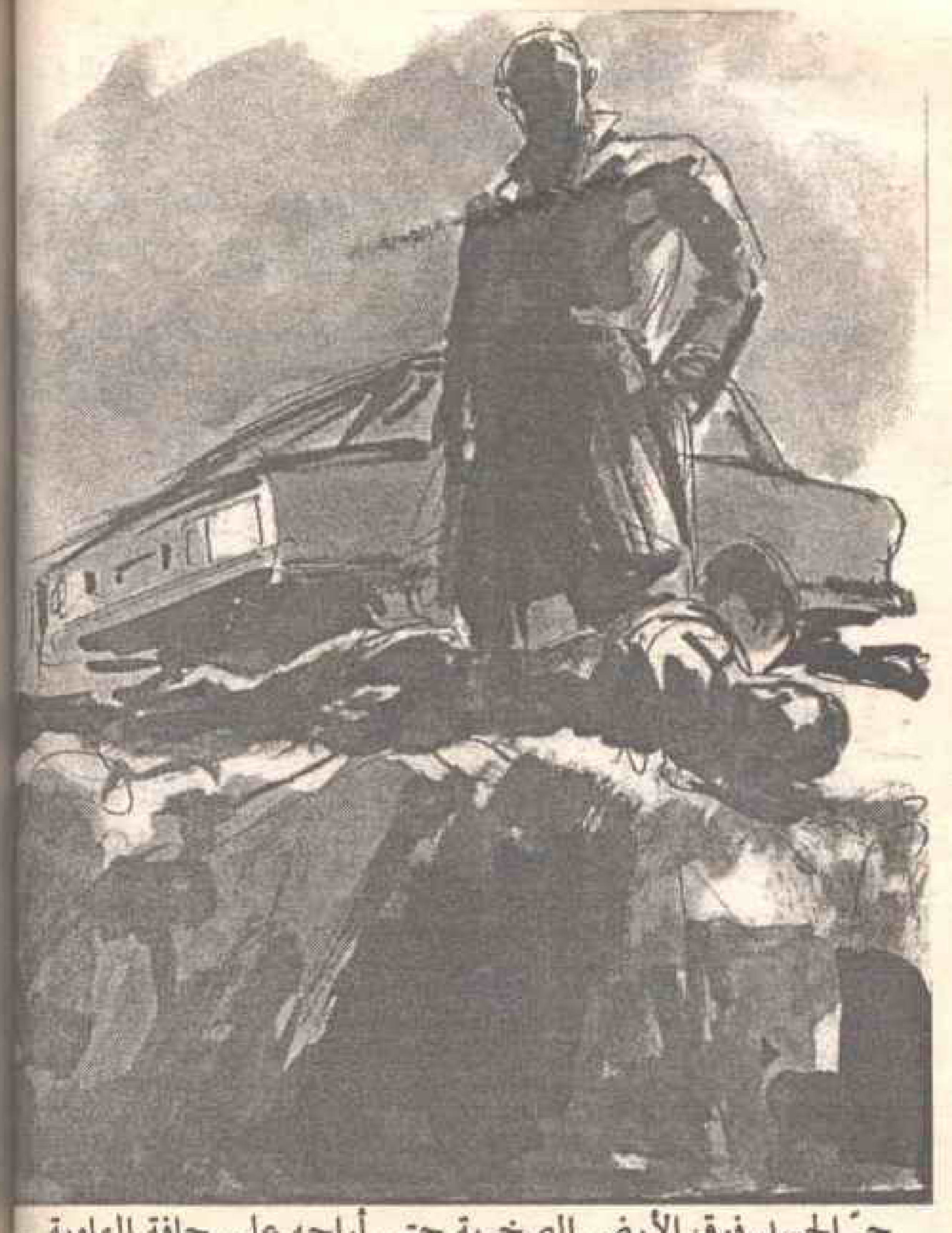
وغادر الملهى الليلى ليواصل رحلته الغامضة بالسيارة ..

* * *

ولا يدرى متى أشرقت الشمس عليه وهو ذاهب إلى لا مكان ..

تذكّر فيلم (رجل وامرأة) لـ (ليلوش) حين قطع بطل الفيلم ليلة كاملة يقود سيارته ، فقط ليكون عند حبيبته فى موعد الاستيقاظ ..

وابتسم .. كان من الجيل الذى اعتبر (ليلوش)



جرّ الجسد فوق الأرض الصخرية حتى أراحه على حافة الهاوية .

عبقريًا ، وقد شاهد فيلم (رجل وامرأة) عشر مرات على الأقل ..

أشرقت الشمس وهو لا يدرى مكانه ..

إنه فى موضع ما من (كندا) .. من المؤكد أنه لم يعبر الحدود إلى (الولايات المتحدة) ، ولم يعبر البحر إلى (أوروبا) ..

وما أهمية ذلك ؟ كل الأماكن تتشابه ..

* * *

أوقف سيارته الزرقاء أمام (كشك) للصحف .. وترجّل ..

كانت البائعة العجوز اللطيفة تنسق زهورها المعروضة للبيع ، وحيته فى رقّة .. ثم سألته :

- « أنت غير متزوج ؟ »

كان النعاس يداعب جفنيه ، ويلوى نبرات صوته حين أجاب :

- « نعم .. كيف عرفت ؟ »

- « هذا الوجه الكئيب الشاحب هو لإنسان وحيد .. »

كانت منتعشة كالربيع ، تفوح من فمها رائحة معجون الأسنان ، ولصوتها مذاق النهار ذاته ..»

قال وهو يتفقّد الصحف المعروضة :

- « حقًا يا سيدتى .. أنا وحيد كالشيطان ..»

وتناول جريدة (الجريمة) التى لم يفوّت عددًا أسبوعيًا منها ، ونقد العجوز مالها ثم اشترى إصبعين من البسكويت بالشيكولاته .. إنه لم يأكل شيئًا منذ ظهر أمس ..

استدار ليركب سيارته فصاحت المرأة :

- « حاول أن تتزوج سريعًا أو تشترى ببغاء ! »

- « إن الزواج أرخص حتمًا ! »

وجلس فى مقعد السيارة ، وأدار المحرك مبتعدًا ..

وفى كافتريا صغيرة نظيفة ، جلس فى ضوء الشمس الداخل من النافذة جواره يطالع الجريدة ..

جاءت الساقية بعينين متفحصتين إثر النوم ، وكانت ما زالت تعيد ترتيب بعض الأشياء على المناضد ، فطلب منها قهوة مركزة وشطيرة جبن .. ثم راح يبحث عن ضالته فى الجريدة :

- « أخبار سفاح (تورنتو) .. »

هى ذى الصورة التى رسمها لـه فنانو الشرطة .. وهى صورة ممتازة لكنها ـ كعادة رسوم الشرطة ـ لا تشبهه على الإطلاق ..

صحيح أنها لرجل قصير الشعر ضيق الجبهة ذى عوينات ، لكن هذا يجعلها تصلح لمئات الأشخاص سواه .. كل الرجال ذوى العوينات يتشابهون إلى حدّ ما ..

كانت الصفحات التالية مزدانة بصور خمسة عشر واحدًا من ضحاياه .. وكل صورة تمثّل وجه الضحية المرح الضاحك ثم وجه الجثة الخامد المخيف .. لقد رأى هذه الصور مرارًا ..

بعد صفحتين قرأ مقالاً لعالم نفسى مختص فى الجريمة ، يتحدّث عنه هو بالذات .. ويقول فى المقال :

ـ « هكذا ينتهون جميعًا !»

« فى كل صباح ـ تقريبًا ـ تهتزّ (كندا) كلها حين تطلع على الجريمة الجديدة لسفاح (تورنتو) ، الذى ما انفك يفاجئنا بسلسلة لا تنتهى من الجثث المتباينة .. ثمة جثث باعة جوّالين وربّات بيوت

مهذبات وموظفين وبنات ليل وصبية كشافة .. خمسة عشر قتيلاً لا يربط بينهم رابط ..»

« وللحقيقة نعترف أن سفاح (تورنتو) ذكى جدًا ، فهو لا يقتل طائفة بعينها من الضحايا ، على غرار (سفاح الشقراوات) أو (سفاح الأطفال) .. كما أنه لا يستعمل أسلوبًا موحدًا فى القتل ..

هناك من قتلوا بالمدى ومن خنقوا بالسلك ومن ربطوا فى سيارة مسرعة حتى ماتوا .. »

« وهكذا يمكننا استخلاص حقائق مهمة : هذا السفاح لا يحمل ضغينة نحو طائفة معينة من المجتمع ، ولا يحمل ميلاً عصابيًا ما تجاهها .. بالأحرى هو نفسه لا يعرف السبب فيما يفعله .. إن القتل بالنسبة لرجل كهذا هو ميل طقوسى شبيه بالطقوس الدينية .. ولربما يتصور أنه مبعوث السماء للقتل وأن هناك تكليفًا علويًا له بهذا ..»

« إن السجلات تضم سفاحين عشوائيين كثيرين من هذا الطراز، وكلهم لم يملكوا تفسيرًا لما يفعلون.. وكانوا جميعًا يتصرفون طبقًا لخطة معينة فى ذهنهم المريض، لكنهم جميعًا كانوا يعملون من أجل الوصول

لرقم معين من الضحايا ، وبعد بلوغ هذا الرقم يشعر السفاح أن تكليفه العلوى قد انتهى ، وأن الوقت قد حان لإنهاء حياته ، لهذا انتحر أكثر هؤلاء إن لم يكن رجال الشرطة قد قبضوا عليهم أولاً ..»

« ما العدد المقدس بالنسبة لسفاح (تورنتو) ؟ الله وحده يعلم .. لكن من المعتاد ألا يزيد هذا العدد على عشرين ، وأنا أتكلم هنا عن السفاح غير ذى الضحية المحددة ، فسفاح الشقراوات مثلاً لا تقيده نظرية العدد هذه ، وقد يقتل ألف شقراء ما لم يُعتقل ..»

« وحين نتأمل الرسم الوحيد الذى حصلنا عليه للسفاح ، والذى لم يسهّل عملية اعتقاله مما يؤكد أنه لا يشبهه إلى هذا الحدّ ؛ نجد ـ على قدر ما هو مبيَن ـ أن سفاحنا رجل هادئ مسالم من الطراز الذى يأمن الجيران جانبه ، لكنهم لا يحبونه بحال ، ولا بد أن وصفًا (مملاً) قد ورد على أكثر من لسان بصدده .. »

« طراز كهذا يوحى بأنه رأى قمعًا كثيرًا فى طفولته ، وعلاقات أسرية متفسخة واجهها بأن ازداد

صمتًا وانطواءً .. يمكننا أن نتصورَ إذن أنه بدأ يجن ببطء ، وأن مفهوم العدد المقدس قد سيطر عليه ..»

« إننى لا أبرر فشل رجال الشرطة فى القبض عليه حتى هذه اللحظة ، لكن سفاحًا كهذا يكون ذكيًا حذرًا كتومًا يحسن ارتكاب الجريمة الكاملة .. وهذا يثير الذعر لكنه لن ينسينا الحقيقة الحتمية : ثمة رقم سيصل إليه الضحايا ثم يتوقَف السفاح عن القتل .. سيشعر بفتور بالغ وبأن حياته لم يعد لها مبرَر بعد ما انتهت رسالته ..»

« عندئذ سيجده رجال الشرطة جثة هامدة ، وإذا لم يترك رسالةَ اعتراف لن يعرف أحد حقيقته إلى الأبد .. فقط سيكتشف الناس أن سلسلة جرائم القتل قد توقفت دون تفسير ..»

« لقد اقتربت نهايةَ سفاحنا المزعوم ، ربما الآن أو بعد خمس ضحايا آخرين .. لكن ـ تذكروا ـ العدد المقدس لن يتجاوز العشرين ..»

انتهت المقالة ..

فى غلّ وغيظ اعتصر الجريدة بين أنامله ، وغمغم حاقدًا :

- « حمار كبير يحاول أن يتعالم ! »

وشعر بأنه لم يعد يستطيع التهام إفطاره ..

* * *

لكنه كان يفهم .. كان يعرف ..

ستة عشر!

لم يدر متى ولا كيف اختار هذا الرقم .. لكنه صحيح ولا مفرّ منه ..

ستة عشر !

يحاول جاهدًا معرفة لغز هذا الرقم .. ستة عشر هو عمره عندما ماتت أمه فى المتجر ، إذ أفرغ ذلك اللصّ رصاص مسدسه .. ستة عشر هو أول مبلغ سرقه .. ستة عشر عامًا هو عمر (لويز) حين رفضت أن يخطبها .. ترى ما سرّ هذا الرقم ؟

لا يهم .. لكنه قد تخلص من القتيل السادس عشر أمس ، ويبدو أنه وصل نهاية الخطّ .. حقًا لم يعد راغبًا فى أن يرى نهارًا آخر..

وكالمنوم اتجه إلى سيارته وأدار محركها ..

* * *

الطريق السريع الذى تفضله الشاحنات العملاقة ..

اتجه إلى جانب الطريق ، وتوغّل فى الأشجار الكثيفة هناك حتى وصل إلى فسحة تسمح له بترك سيارته ..

هنا لن يجدها أحد عن قريب .. ولو وجدوها فلا أهمية لذلك .. فقط يريد أن يظلّ لغزًا دائمًا .. يترك لهم طلسمًا أخيرًا .. فالسيارة ستجعلهم يعرفون من هو ..

ترك أوراقه على المقعد الخلفى ، ثم أغلق الباب ..

وماشيًا غادر ستار الأشجار إلى الطريق السريع أو الـ (هاى واى) كما يسمونه ..

كانت الشاحنات تندفع كالبرق ، حتى لا تكاد تتبين شكلها أو لونها .. مع ضوضاء تصمّ الآذان ..

لكنه كان قد اتخذ قراره بلا رجعة ..

خطا بضع خطوات إلى منتصف الطريق ، ثم وقف فى ثبات أمام الجبال العملاقة ذات العجلات القادمة نحوه ..

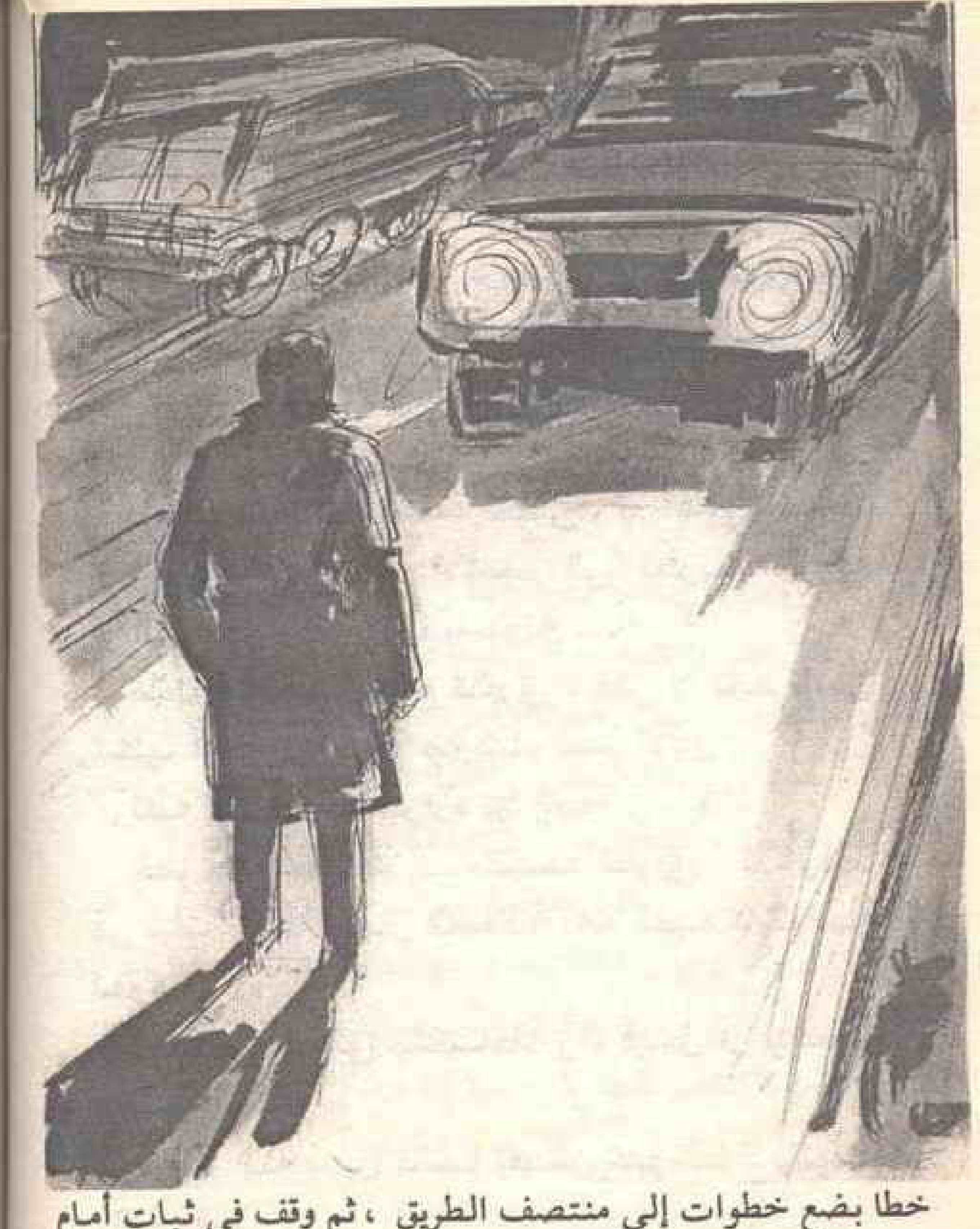
لا بد أن سائق الشاحنة رآه قبل أن يدهمه بثانيتين ..

لا بد أنه ذهل كأنما يعيش كابوسًا لا ينتهى بالاستيقاظ ..

لا بد أنه لم يجد وقتًا كافيًا ليدوس الفرملة ، ولو فعل لانقلبت الشاحنة إلى جانب الطريق ..

لا بد أنه قال شيئًا ما قبل أن يختفى الجسد الواقف بعرض الطريق من أمامه .. الوجه الوديع ذو العوينات .. وجه محام أو طبيب .. يختفى .. ويتلاشى تحت عجلات الشاحنة ..

★ ★ ★



خطا بضع خطوات إلى منتصف الطريق ، ثم وقف فى ثبات أمام الجبال العملاقة ذات العجلات القادمة نحوه ..

١٠ـ لقد عادت!

توقفت السيارة فى ساحة الانتظار بـ (سافارى) .. وفى هذه المرّة لم يعد مجال للانتظام أو الالتزام أو إدعاء الوقار .. ترك الجميع أشغالهم ، واندفعوا يركضون إلى حيث وقفت سيارة الوحدة القادمة من المطار ..

كانت جالسة جوار السائق ، ويدها بعد تمتد إلى مقبض الباب .. عندها لم تدر أن عشرة أذرع قوية حملتها لتطوّح بها فى الهواء على طريقة المرح (الأوكرانى) الثقيل .. ولأعلى ارتفعت ثلاث أو أربع مرات وهى تضحك وتقهقه ، على حين غنوا لها أغنية : « لأنه رجل لطيف طيب .. ولا أحد ينكر هذا » ..

غنوها مرارًا ..

وأخيرًا لمست قدماها الأرض ، فراحت تتحسس ظهرها مردّدة :

ـ « مجانين ! أنتم مجموعةٌ من المجانين ! »

الحق يقال إن شعبية (برنادت) لهائلة فى (سافارى) ، فلو أنها رشحت نفسها لرئاسة الوحدة لصارت رئيسةً بالإجماع ..

كانت أكثر جمالاً وأكثر أناقة ، فلا بد أن السيد (مايكل) قد ابتاع لها طاقمًا أو طاقمين من الثياب بعد ما اشمأز من ثيابها السابقة .. وكانت تضع منظارًا أسود سرعان ما سقط منها وهى تطير فى الهواء ، فرأيت عينيها الزرقاوين الجميلتين تنبضان حياة وذكاء .. لقد عادت (برنادت) الأولى لنا ..

صافحها الجميع ، وعانقتها صديقاتها ..

ثم جاء دورى ـ فى المصافحة طبعًا ـ فاتجهت نحوها كاتمًا البركان الذى يدور فى داخلى .. هى تريدنى صديقًا .. ليكن ..

صافحتها فى حرارة ، وابتسمت قائلاً :

ـ « ف ف .. أهـ .. س .. ش .. ص .. ف .. ف ك ق .. هـ ..»

وهى عبارة بليغة جدًّا كما ترى لأن ارتباكى منعنى من تذكر طريقة نطق الحروف .. لكنها تؤدى الغرض

على كل حال ؛ فماذا سيقال فى مناسبة كهذه سوى (نحن سعداء بعودتك) أو شىء من هذا القبيل ؟
وقد اختارت (برنادت) المعنى الذى فهمه ، فقالت :
- « شكرًا يا (علاء) .. إن لك فضلاً كبيرًا فى هذا ..»

وتدحرج البروفسور (بارتلييه) قادمًا يهزّ طبقات شحمه ، فحيّاها فى حرارة ، وقال كلامًا فارغًا كثيرًا مما يقال فى هذه الأمور..
ثم صفق بيديه صائحًا :
- « والآن يا شباب .. لقد أظهرتم عواطفكم بصدق .. حان الوقت كى يعود كل لعمله ..»
ولها قال وهو يمدّ ذراعه :
- « تعالى إلى مكتبى ولسوف يعنى العمال بحقائبك ..»
كدت ألحق بهما ، لكن د. (باركر) مساعد المدير السمج نظر لى فى كراهية وتساءل :
- « أعتقد يا د. (عبد العظيم) أن عملك فى عنابر الجراحة اليوم ..»
كنت أتمنى لو نسوا أمرى هذا اليوم ، لكن هذا

الرجل لا ينسى .. ثم إننى أمقت مهمة الغيار على الجروح هذه ، خاصة وقد رشحوا لى عنبر مرضى الـ (غنغرينا) بأنواعها : (غنغرينا) جافة .. (غنغرينا) رطبة .. (غنغرينا) الغاز .. كل موديلات الـ (غنغرينا) التى لا يجمع بينها سوى أنها خبيثة الرائحة مقززة ، تتمنى لو فقدت حاستى الشمّ والبصر قبل أن تتعامل معها ..
لكن هذا عملى .. ولو لم أفعله اليوم فلن يفعله سواى ..
- « حالاً يا د. (باركر) ..»
وانصرفت لأمارس تلك المهمة اللعينة ..

* * *

وفى المساء احتشدنا فى الكافتريا حول كعكة سقيمة لا يمكن أن يصنع مطبخ (سافارى) أفضل منها .. لقد ذقت (يمك) الجيش كما تعرفون ، لكنى لم أذق فى حياتى طعامًا أسوأ ولا أبشع من طعام (سافارى) ..
كانت هناك كثير من زجاجات العصير ، والضحكات، وقد تركز الاهتمام كله حول (برنادت) العائدة ..

تذكرت شعورى السابق يوم عدت من السجن بعد مقتل (موزنجا) .. لقد كان الحفل شبيهًا بهذا ، لكن (برنادت) عائدة من سجن انعدام الحواس ، وهو سجن ـ فاعلم ـ مرير ..

ومثلى أنا كانت شاردة الذهن متبلبلة الحواس قليلاً .. وقد فسرتُ هذا بأنها مرهقة كحامل أنجبت توءمين من فورها ..

كان (شلبى) معنا ، وهى لفتة رقيقة من واحد يعتبر نفسه أبا الطب ، ويرى أننا أقل من أن نعيش لا أن يجالسنا ..

كان (إبراهام ليفى) كذلك موجودًا ، وراح يتظاهر بالمرح اللطيف وقد رسم على وجهه تعبير التواضع ، كأنما يقول : هى ذى قد عادت لكم سالمة .. لقد أتعبتنا كثيرًا لكننا شفيناها كما ترون !

قابلت نظراته بنظرة من نوع : كف عن الفخر يا أحمق .. فليس لك أدنى دور فى هذا ..

حقًا إن علاقتنا هى نوع من (عدم ـ الاستلطاف) المتبادل .. لكنها ليست حربًا .. وإن كنت أعرف أننا سنصطدم حتمًا وقريبًا جدًا ..

سألها (بسام) وهو يصبُ لها مزيدًا من العصير :

ـ « هل حقًا ترين الحياة بمنظار جديد ؟ »

ابتسمتْ وقالتْ :

ـ « إنها قرنيةٌ جديدةٌ لم يتلفها غبار الصحراء الإفريقية ، ولم تر الموت ولا الألم .. يشبه الأمر أن تقود سيارة بزجاج متسخ ثم يقوم أحدهم بغسله بعناية ..»

نظرت إلى ساعتى ووجدت أن الوقت قد حان .. إن (سباتزانى) يريدنى فى غرفةَ الجراحةَ معه لأساعده فى استئصال ورم سرطانى فى معدة امرأة .. وقد أبديت له دهشتى من اختيار العاشرة مساءً لجراحةً كهذه ، لكنه ضربنى بقبضته المشعرة فى صدرى وصاح :

ـ « إن هذا مناسب لمن يكرهون الشمس مثلى يا صبى ! لا أستطيع أن أعمل بينما الشمس تحرق مؤخرة عنقى !»

وانفجر فى ضحكته الإيطالية المجنونة .. كل شعوب شمال البحر المتوسط تطوح رأسها للوراء وتفتح فمها إلى آخره عند الضحك .. لم أجادل ..

فهذا رجل يرى أن الشمس تضايقه برغم أنها لا تدخل غرفة الجراحة صباحًا ولا مساءً .. هذا شأنه على كل حال ..

نهضت لألحق به.. هنا هتفت (برنادت) وهى تنهض:

- « (علاء) .. لحظة من فضلك !»

وبخطوات سريعة مشت إلى جوارى ، تاركة المحتفلين ينظرون لنا فى دهشة مرددين بالأسبانية ، بالإيطالية ، بالفرنسية ، بالإنجليزية ما معناه بالتأكيد (ماشية معاك يا عمّ) أو (يا بختك) ..

سألتها وأنا أنظر لهم فى ارتباك :

- « ما الموضوع بالضبط ؟»

كنا قد عبرنا الممر الخارجى المارّ بالحديقة متجهين إلى قسم الجراحة .. بالتأكيد ستصارحنى بحبها لى فى هذا الليل المظلم الذى يعبق برائحة زهور المساء ، وصوت صرصر الحقل الذى أجده شاعريًا برغم كل شىء ..

ارتجف فؤادى توترًا ، وانتظرت عبارتها الأولى .. وكانت :

- « (علاء) .. أعتقد أننى أصبت بالخبال !»

أعوذ بالله ! يا لها من بداية رومانسية حقًا !

سألتها وقد بدأت أشعر بأننى أسأت الفهم نوعًا :

- « ليس خبال الفرحة طبعًا ..»

- « لا أدرى ما هو لكنه خبال .. إن المخابيل يرون أشياء طيلة الوقت .. أليس كذلك ؟»

- « بلى .. ولكن هل ترين أشياء ؟»

- « إنه ذلك الوجه .. ذلك الوجه ..»

وارتعدتُ فرقًا .. فأدركت أن الموضوع جادّ ورهيب بحق .. هناك وجوه فى الموضوع و (برنادت) ليست من الطراز الهستيرى العصابى إياه ..

- « وجه ؟ وماذا يفعل بالضبط ؟»

- « لا شىء .. يحملق فىّ ..»

- « وهل هو مجسّم ؟»

- « يبدو مضخمًا يشمل المكان كله .. كأنه من لقطات المزج الشهيرة فى السينما .. لقطة عامة للناس من حولى تمتزج بها لقطة قريبة جدًا للوجه..»

آه .. فهمت ! الأمر إذن يتعلّق بالوجوه المحلقة فى الجو ، وهذه الفتاة قد أصابها الخبال كما تزعم أو هى فى الطريق إليه ..

قلت لها وأنا أفكر فى الخطوة التالية :

ـ « حسن .. سنتحدث فى هذا كثيرًا فيما بعد .. أما الآن فإن وجه (سباتزانى) الغاضب هو الشىء الوحيد الذى أراه !»

ولم تكن هذه طريقة للتملص لأننى حقًا قد تأخرت عن الرجل إلى حدّ الخطر ، وحين ترى (سباتزانى) غاضبًا ضخمًا كالثور ويزأر كالبركان تتمنى لو لم تكن أمك قد أنجبتك ..

وتمنيت لها ليلة سعيدة على أن أراها غدًا ..

* * *

فرغ (سباتزانى) من استئصال المعدة وسط ضوضاء لا تهمد ، وشتائم وضحكات ولكزات بالكوع .. حتى شعرت كأن رأسى ينفجر ..

فلما كان لا يجد استعدادًا للمرح من جانبى كان يزداد صراخًا ، ويتهمنى بأننى معقد ومنطو ومريض بـ (الميلانخوليا) ..

وبعد ساعة وربع فرغ ببراعته المعهودة من استئصال الورم مع نطاق أمان لا بأس به من العقد اللمفاوية ..

سألته وأنا أحاول الاتزان كى لا أسقط مغشيًا علىّ:

ـ « هل .. هل ستشفى ؟»

ناولنى الجفت والخيط لأرتق طبقة العضلات، وقال:

ـ « هذا يتوقف يا صبى على ما إذا كنا لم ننس خلية سرطانية واحدة داخل هذه المرأة .. على كل حال يمكننا أن نرى ما سيوصى به أطباء العلاج الكيماوى والإشعاع .. ربما أوصوا ببضع جلسات من الأشعة .. مام ماميا ! أحقًا لم تنته من رتق العضلات بعد ؟ إن خالتى تجيد الجراحة أكثر منك..»

أخيرًا انتهى هذا الكابوس وعدت لغرفتى..

إن (سباتزانى) ممتع ، بل وقطعة من الفن الرفيع.. لكن ليس فى العاشرة مساءً حين تنفد طاقتى ويجف وقودى ..

فتحت باب الغرفة وانتويت أن أتحوّل إلى لوح من خشب حتى الصباح ، لكننى سمعت الصرخة قادمة من غرفة ....

(برنادت) !

* * *

١١- رؤى..

كلا لاتجزعوا..

لا داعى لانزعاجكم .. إنه مجرّد كابوس يا سادة رآته طبيبتنا الكندية الشابة .. لا تتجمعوا أمام حجرتها أرجوكم .. عودوا لأعمالكم أو لأسرتكم ..

كابوس يا سادة .. ألا يرى أحدكم كابوسًا ؟ كابوس هو كالذى يزوركم لو التهمتم شيئًا دسمًا على العشاء ، أو نمتم على ظهوركم ، أو شاهدتم فيلمًا من الأفلام إياها قبل النوم ..

كانت الغرفة مفتوحة وبها أربعة أو خمسة يطيبون خاطرها ، واضح أنها صرخت أعنف صرخة دوّت فى (سافارى) منذ إنشائها ، لأن الطابق كله قد استيقظ مندهشًا أو خائفًا ..

دنوت من الباب فرأيتها جالسة على الفراش تولول ، وأدركت أن قفل الباب مهشم لأن من هرعوا لها ظنوها تُذبح .. وصاح صائح :

- « لا مشكلة يا شباب .. عودوا لأسرّتكم .. »

لكنى تجاهلته واجتزت الباب ، وفردت الملاءة على ساقيها ثم دنوت منها وأنا أتساءل : هل من الغباء أن أستفهم عن كابوسها ؟ لربما كان من الحكمة أن أخرس وأكتفى بتهدئة روعها ..

رفعت عينيها الحمراوين الدامعتين نحوى ، وكأنما لتريحنى صاحت :

- « إنه وجه جديد يا (علاء) !»

هنا - وقد صار لى دور فى الموضوع - شرعت فى طرد كل هؤلاء الفضوليين بعبارات على غرار : انتهى الأمر يا سادة .. لا مشكلة هناك ، إلخ ..

أخيرًا صرنا وحدنا فى الحجرة ..

اللعنة ! لقد داسوا على (الموكيت) الوردى بأحذيتهم القذرة ، وأقدامهم الحافية الأكثر قذارة..

جلست على (الموكيت) جوار الفراش لأوحى لها بالاسترخاء ، وعدت أستقصى هذه النقطة الأخيرة ..

- « وجه جديد ؟ »

- « نعم .. وجه امرأة هذه المرّة ..»

تحاشيت إبداء ردود أفعال ، وسألتها فى مزيد من الحذر:

ـ « وجه امرأة .. هل تعرفينها ؟»

ـ « البتة .. لكنه كان واضحًا كالشمس ..»

وابتعلت ريقها الذى جففته شحنة الانفعال السمبثاوى ، وهمست :

ـ « شقراء ذات شعر قصير .. كانت تعيد رأسها للوراء وقد جحظت عيناها وتدلى لسانها وارتسمت على وجهها أعتى أمارات الهلع .. يمكن القول إنها كانت تختنق !»

وشهقتْ منتظرة ردّى ، فلما لذتُ بالصمت أردفتْ :

ـ « وكان وجهها كالمعلق فى سماء الغرفة .. كلما نظرت لجهة رأيتها حتى صرخت ، وهشم أحدهم الباب .. لا بد أن استجابتى طالت أكثر من اللازم .. وأضاءوا النور الكهربى عندها تلاشى الوجه..»

لم أجد ما أرد به عليها .. فهذه الهلوسة أمر لا يمكن تفسيره سوى بأنها هلوسة .. لا جديد هناك .. وكوابيسى أفظع من هذا على كل حال ..

سألتها فى صوت حاولت أن يكون رقيقًا :

ـ « هل أنت قادرة على النوم الآن ؟»

ـ « أظن هذا ..»

ـ « إذن نامى ..»

* * *

وفى الصباح عادت للعمل فى عيادة الأطفال ، للمرّة الأولى منذ الحادث .. وكنت أنا مشغولاً مع (إيشيهارا) فى التخدير فلم أرها ..

فيما بعد عرفت أنها تصلبت فجأة كأنما هى ترى الشيطان ذاته ..

اتسعت عيناها وصرخت بصوت شبيه بالندابات الأجيرات :

ـ « ابتعدى عنى ى ى ى ى !»

وارتجفت فرائص (بودرجا) البائس حين رأى المشهد .. فهو متعلم لكن ميراث العفاريت والأرواح لم يفارقه قط ، وكان رأيه قاطعًا : الأرواح الشريرة قد حلت بجسد د. (جونز) ..

وهكذا حملوها حملاً إلى الاستراحة .. وقدموا لها مشروبًا مثلجًا وحاولوا أن يطمئنوها لكنها كانت ترتجف كورقة ..

جاءنى (بسام) فى غرفة الجراحة ليقول بلهجة عابرة:

- « (برنادت) فى حالة سيئة فى الاستراحة .. ربما كنت راغبًا فى ....»

نظرت له شذرًا .. لقد اعتبرنى الجميع هاهنا العاشق الولهان الذى لا يفوّت فرصة لتطييب خاطر معشوقته .. أنا لا أنكر هذا الدور لكنى لا أريد أن أمارسه علانية ، بحيث يتطوع الجميع بإخبارى بوجوب أن أفعل شيئًا ..

على كل حال : لم أجد وقتًا كافيًا للاحتجاج ، واعتذرت لـ (إيشيهارا) ..

ولحسن الحظ لم تكن الجراحة قد بدأت بعد .. كنا فى طور الإعداد لها .. ثم هرعت إلى الاستراحة دون أن أنتظر ردّ الرجل ..

وكانت (برنادت) فى وضع شبيه بوضعها أمس .. ذات الدموع والانهيار والتهانف والمخاط السائل من الأنف .. فقط كانت بمعطفها لا قميص النوم .. فلما رأتنى صاحت فى جنون :

- « (علاء) ! افعل شيئًا !»

قلت فى غباء :

- « أفعل شيئًا لأى شىء ؟»

- « لهذه الوجوه التى تلاحقنى !»

- « هل حدث من جديد ؟»

- « بالطبع .. وجه امرأة تصرخ والشرر الكهربى يتصاعد من منخريها وفمها وأذنيها .. حتى حدقتيها صار لونهما أبيض .. (علاء) .. لقد رأيت امرأة تموت صعقًا بالتيار الكهربى ! »

- « هى نفس المرأة السابقة ؟»

- « لا .. هو وجه امرأة متقدمة فى السن ، وجهها ملىء بالتجاعيد ..»

بحثت عن كلمات ، وفى النهاية ضغطت على كرتى عينىّ بإصبعين من أصابعى ، وقلت مستسلمًا :

- « (برنادت) .. كل شىء فى هذا العالم يمكن قياسه أو شمه أو سمعه .. لا توجد خوارق هاهنا .. الأمر ببساطة هلاوس .. هلاوس ، لكن الجنون ليس خالقها .. بل الإرهاق .. لقد عشتِ أيامًا عصيبة حقًا ولهذا دوره فى كل ما ترين ..»

- « وكل هذا لا يتعلق بالمسّ الشيطانى ولا الجنون ؟»

- « إن الشياطين مشغولة بألف شىء غير خلق الرؤى الجنونية لك.. وقتها لا يسمح بهذا الهراء..»

ابتسمت للمرة الأولى ، وبدأت تتخذ وضع النهوض .. وفجأة توقفت وسألتنى :

ـ « ومتى ينتهى كل هذا ؟»

ـ « لا أدرى .. لماذا لا تقومين بإجازة تريحين فيها أعصابك المنهارة ؟»

حكّت شعرها الأشقر كأنما تمرح فيه ألف قملة ، وقالت :

ـ « إجازة ثانية ؟ لا تنس أننى عائدة من إجازة ستة أشهر .. متى أمارس عملى إذن ؟»

ثم واصلت النهوض مترنحة قليلاً لكن مصممة على الاستمرار .. العزيمة تمشى على قدمين وحذاءين مطاطيين ..

* * *

فى قاعة المحاضرات ..

جلسنا جميعًا بانتظار بدء المحاضرة التى سيلقيها ضيف من منظمة الصحة العالمية .. البروفسور (ماك ويلسون) خبير (الملاريا) الذى جاء من (تايوان) خصيصًا كى يحدثنا عن الوضع الوبائى للملاريا فى جنوب شرق آسيا ..

كان الكرسى المجاور لى شاغرًا ، فرأيت (برنادت) شاردة الذهن تقصده فتريح جسدها إليه ، ولم تكلف نفسها بتحيتى أو بـ (التشنيكة) الشهيرة التى هى ماركتها المسجلة ..

برغم هذا شعرت برضا .. إنها حائرة .. وهى فى حيرتها تتجه لا شعوريًا إلى أدنى موضع لى دون أن تدرك ذلك .. شفقة غامرة مزقت روحى عليها .. ولم أدر متى كانت أتعس : وهى ضريرة أم وهى مبصرة تنتابها الهلاوس ..

كانت المحاضرة ستلقى بالإنجليزية ، لهذا تطوّع (آرثر شلبى) بأن يترجم إلى الفرنسية ما سيُقال .. وأنا أجد راحة فى سماع الإنجليزية والكلام بها تدنو من راحتى لسماع العربية .. لكن ـ للأسف ـ تعتبر الإنجليزية من الخطايا فى وحدة (سافارى) .. الكل يتكلم الفرنسية حتى الإنجليز والألمان والإيطاليين والفرنسيين أنفسهم !

وعلى مكبر الصوت نقر (شلبى) مرتين بسبّابته .. مغمغمًا :

ـ « الانتباه من فضلكم ..»

أخيرًا ساد الصمت ، والتفت إلى ضيفه ليقول له :

ـ « يمكنك البدء يا سيِّدى ..»

أطفأوا الأنوار استعدادًا لعرض الشرائح الذى سيقدمه لنا (ويلسون) وشعرت بذلك الشعور اللذيذ من الترقب كالذى كان ينتابنى حين تُطفأ الأنوار فى (سينما مترو) فى (القاهرة) ، ونحبس أنفاسنا بانتظار رأس الأسد الذى يزأر ويتلفت حوله مشمئزًّا..

هنا سمعت شهقات من جوارى ..

شهقات تتزايد .. تزداد سرعة .. تتلاحق .. ثم ...

ثم وقفت (برنادت) صارخةً :

ـ « كفى ى ى ى ى ى !»

ثم انفجرت فى البكاء وغطت عينيها بكفيها ..

هنا تحولت قاعة المحاضرات إلى ما يشبه (الترسو) فى سينما (مترو) كما كنت أقول لك .. صياح وضوضاء وتساؤلات ..

أما أنا فكنت أعرف دون أسئلة ..

طبعًا رأت وجهًا كذا يموت بسبب كذا ..

رفعت يدى كى أخرس هؤلاء الهمج ، وصحت:

ـ « لا تقلقوا ! إنها مُرهقة الأعصاب وتهاب الظلام ..»

هنا ـ فى تؤدة ـ قال (شلبى) فى مكبر الصوت حيث وقف على المنصة :

ـ « د. (عبد العظيم) .. أرجو أن تعالج هذا الأمر خارج القاعة .. »

كأننى لن أفعل ! لشد ما تثير غيظى هذه الاقتراحات الغبية الزائدة عن الحاجة .. بهذا يبدو فى صورة المنقذ حاضر الذهن ثابت الجنان..

وساعدت (برنادت) على مغادرة القاعة ، بينما الكل ينظر فى فضول أو فى دهشة ..

★ ★ ★

بعد ما شربت الماء البارد ، أعادت رأسها إلى الوسادة الموضوعة على الأريكة وقالت :

ـ « كان وجهًا بدينًا أصلع يحتشد العرق على جبينه .. كان مذعورًا لكنه عاجز عن المقاومة .. أقرب ما يكون إلى المخدَّرين أو المنوَّمين ..»

ـ « هذا لا يثير الذعر ..»

ـ « بل يثيره لأن نصل سكين كان يتحرّك ببطء فوق عنقه ! »

ابتلع البروفسور (بارتلييه) ريقه فى فزع وتحسّس



سألها فى رقة وهو يجوب الغرفة :

- «والحلّ يا (برنادت) ؟» ..

عنقه .. وجه بدين أصلع يحتشد عليه العرق .. ليس تصور نفسه فى هذا الموقف عسيرًا ..

سألها فى رقة وهو يجوب الغرفة :

- « والحلَ يا (برنادت) ؟»

- « لست أنا المسئولة عما أعانيه يا دكتور ..»

راح ينسق بعض الزهور فى مزهرية على منضدة .. نسيت أن أقول لك إننا كنا فى استراحة الأطباء مرة أخرى ..

بعد هنيهة قال :

- « إننى فى سن والدك ، وأعرف أنك تحملين لى ما أحمله لك من مودة واحترام .. لهذا لا أرى ما يشين فى أن أطلب منك المرور على د. (جونستون) صباح غد ..»

- « كنت أفكر فى هذا ..»

هنا صعد الدم إلى رأسى ، وصحت على الفور:

- « عيادة الأمراض النفسية ؟! لم نصل بعد لهذا الحدّ ..»

ازداد لطفًا كعادته كلما هوجم ، وصاح ملوحًا بيديه :

- « هأنتذا يا (علاء) تتحدَث كرجال القبائل .. إن المرض النفسى لا يعنى الجنون .. الاكتئاب مرض نفسى ، وكلنا مكتئبون إلى حد ما ..»

هنا تدخلت (برنادت) :

- « سأفعل يا بروفسور .. هذا وعد .. »

شكرها على ذكائها ، ثم أشار لى من طرف خفى كى ألحق به ..

لحقت به وأغلقت الباب ورائى ، وكدت أصيح انفعالاً .. لكنه أوقفنى بإشارة حازمة من يده ، وهمس :

- « (علاء) .. لا تزد الطين بلّة .. إن الفتاة فى طريقها للجنون ومن يزعم غير هذا فهو منافق ابن منافق !»

* * *

١٢ - عالم قاس يا فتاة !

تمت زيارتها لـ د. (جونستون) فى سرية تامة..

هذا طبيعى لأنه - حتى فى وسط طبى مثل (سافارى) - يمكن للمرء أن يثير علامات الاستفهام حول نفسه لو تعامل مع الطبيب النفسى ..

إن كل (سافارى) تتحدَث اليوم عن نوبات (برنادت) ، ولا ينقصها سوى أن يراها الجميع تدخل عيادة الطبيب النفسى..

لحقت بها إلى هناك لكن الطبيب الإنجليزى ابتسم فى تهذيب ، وعيناه الزرقاوان لا تكفان عن النعب فى محجريهما ، وأغلق الباب فى وجهى معلناً دون كلام أن الفتاة بحاجة إلى الخصوصية ..

وقفت ساعة كاملة خارج الباب أنقل قدمىَ قلقاً .. حتى شعرت بما يحسه الأب الذى ينتظر طفله الأول خارج غرفة التوليد ..

أخيرًا انفتح الباب ، ومن جديد هزّ الإنجليزى رأسه

محيّيًا ، وخرجت (برنادت) فى تردد وقد بدا عليها ذهـول الأدغـال الـذى تحدّث عنه الأمريكيون فى (فيتنام) ..

سألتها ونحن عائدان :

ـ « ما هو رأيه ؟»

ـ « لا شيء.. هذه الوجوه لا تمت بصلة لماضى.. هذا سهل .. فأنا لم أر أى وجه من هذه الوجوه فى حياتى ..»

ـ « وكالعادة دار فى دائرة الهلاوس ..»

ـ « لا يوجد سواها ..»

دون كلمـة أخرى جذبتها من معصمها ، واتجهنا إلى قسم العيون.. فسألتنى وهى تتبعنى فى استسلام :

ـ « ماذا ستفعل هناك ؟ لا علاقة للجراحة بـ ..»

ـ « سترى !»

* * *

سألنى (ليفى) عمـا أريد بلهجة عربية سرقهـا ـ ككل شىء ـ من عرب فلسطين ؛ وخرجت مقيتة محرّفة من أنفه الأخنف :

ـ « إيش بتريد هون ؟»

لم أردّ وتقدمت حتى وصلت إلى مكتب البروفسور (شافيز) ، فقرعت الباب ودخلت .. وأشرت لها كى تجلس ..

سألنى وهو يضع سماعة الهاتف :

ـ « هـذه طبيبتنا الشـابة .. لا تقل لى إن هنـاك مشاكل ..»

ـ « هناك مشاكل ..»

ثم شرحت لـه كـل شىء عن الوجـوه إياهـا .. وأضفت :

ـ « لقد بدأ كل شىء بعد الجراحة .. يصعب هاهنا ألا نربط بين الأمرين لأن المصادفات لا تحدث إلا فى دروس الإحصاء ..»

ابتسم .. ونظر إلى عينى (برنادت) مدققًا ، وقال :

ـ « إن القرنية يا بنى لا تزيد على غطاء شفاف للقزحية .. كزجاجة ساعة .. لا قدرة لها على جعلك ترى أشياء لا وجود لهـا .. لقـد أخطـأت العيـادة المناسبة .. إن عيادة الأمراض النفسية هى فى نهاية هذا الممر على اليسار..»

- « مررنا بها أولاً .. وقال لنا (جونستون) إن عيادة العيون هى فى بداية هذا الممر على اليمين ..»

ابتسم من جديد لهذا الردّ ، ثم بعد برهة تفكير دعاها إلى النهوض لتجلس على مقعد الفحص وراء عدسة المصباح الشقِّى .. وجلس على الجانب الآخر وراح يفحص عينيها فى اهتمام ..

بعد دقائق قال لى وهو ينهض :

- « لا يوجد شىء غير معتاد .. المزرعة تعمل بشكل ممتاز .. ولا مظاهر رفض .. كما أنه لا توجد أجسام أو دماء فى الجسم الزجاجى وراء العدسة .. أى إنه من المنطقى ألا ترى أية أشياء غير معتادة فى مجال بصرها ..»

الأجسام فى الجسم الزجاجى احتمال كنت قد فكّرت فيه وتمنيته ، فهو يفسر أشياء كثيرة نراها دون أن توجد .. وأبسط نموذج على هذا هو (الذبابة الطائرة) التى يراها كثيرون منا تحلق عند أطراف مجال الإبصار كلما نظرنا فى اتجاهات معينة ، وإضاءة معينة ..

تنهّدت فى استسلام :

- « أى أنه لا يوجد تفسير..»

- « إلا ما قلته لك أولاً ..»

نظرت إلى (برنادت) الخائفة المذعورة ، والتى أحاطت الهالات السوداء بعينيها .. وخطر لى أن الفكرة ليست مستبعدة تماماً ..

يبدو أن رحلتها إلى (كندا) كانت قاسية ، مما جعلها تعيش فى دائرة من الحصار النفسى المرير .. ترى ماذا فعل بها أبوها وماذا قال لها ؟ فعل وقال بالضبط تلك الأشياء التى تجعلها ترى وجوهاً صارخة طيلة اليوم ..

* * *

ولم تر (برنادت) الوجه التالى إلا بعد الظهر..

كانت قد أعدّت بعض شرائح نخاع العظام ، وأخذتها معها إلى المعمل لتسترشد برأى د. (هيلجا) الشمطاء ، كما هى العادة دائماً ، لأن (برنادت) تملك اهتماماً خاصاً بأمراض دم الأطفال ..

تقول إنها راحت تضبط عدسة المجهر ، وأخيراً بدأت ترى الخلايا السرطانية الخبيثة المميزة لسرطان

الدم اللمفاوى الحاد .. الخلايا مبهمة زائغة ، ثم تتضح ببطء شديد وتزداد معالمها حدة ..

هنا رأت (برنادت) – فى مجال رؤيتها تحت العدسة – ذلك الوجه المولول الباكى .. وجه رجل يضع على رأسه قبعة رسمية ما : عامل مصعد أو موزع بريد أو ... المهم أنه يصرخ وأن حبلاً سميكًا يلتف حول عنقه ..

قررت ألا تصرخ .. لسوف يتلاشى هذا المشهد سريعًا ..

رفعت عينيها وتأملت المعمل حولها ، وهالها أن أدركت أنها ترتجف كورقة حتى إنها اعتصرت يدها اليمنى بيسراها كى توقف الرجفة ..

سألتها (هيلجا) وهى تنفث دخان لفافة التبغ ، وتدنو منها :

- « ما كل هذا الذعر ؟ إن العرق يسيل على جبينك بشدة .. هل الخلايا شرسة إلى هذا الحد ؟»

لم تجد صوتًا فهزت رأسها مرتين ..

قالت (هيلجا) بصوتها الرجولى الخشن ، ودون ذرة تعاطف :

- « يا له من عالم قاس يا فتاة ! كل هؤلاء الأطفال يموتون بسرطان الدم إن لم يجدوا فرصة للموت بالملاريا ..»

- « نـ .. نعم .....»

وعادت تنظر إلى ما تحت المجهر داعية الله أن يكون قد رحل ..

لكنها وجدته ما زال ينتظر ، مواصلاً رحلته البطيئة الكريهة من يمين مجال رؤيتها إلى يساره..

ولم تشعر متى ولا كيف جلست (هيلجا) جوارها ، وراحت تدرس المشهد باستعمال العدسة الجانبية للمجهر (القطعة التعليمية) .. لم تر (هيلجا) شيئًا بالطبع وراحت تتفحص الورم على حين يخنق دخان سيجارتها أنفاس (برنادت) ، ثم كان رأيها قاطعًا :

- « لا خلايا سرطانية يا فتاة .. أنت تتوهمين ..»

صاحت (برنادت) محتجة :

- « لكن .. هناك الكثير منها .. إن .....»

- « ولا خلية واحدة .. يبدو أنك مرهقة للغاية بعد ما حدث لعينيك..»

ثم نفثت الدخان فى وجه (برنادت) ، وهتفت ولفافة التبغ بين أصابعها الطويلة الخشنة بأظفارها المصبوغة وأطرافها المسودَة :

- « عالم قاس هناك يا فتاة .. يفعلون كل شىء كى يجعلونا نجنّ .. فإذا ما جُننا اتهمونا بالجنون وتخلصوا منا ! »

* * *

عالم قاس يا فتاة !

* * *



١٣ - هُم !

جلست على (الموكيت) الوردى فى حجرتها أبحث وسط مجموعة أسطواناتها عن شىء يصلح .. يستحيل أن أعرف أبدًا الفارق بين (شتراوس) و (موتسارت) أو بين (رحمانينوف) و(بتهوفن) .. كلهم منكوش الشعر يهزّ عصاه فى جنون ، وكلهم يكتب موسيقا لا يمكن متابعتها ولا بد من أن تنام فى أثناء سماعها ، ما لم تكن مثقفًا وهو ما لا ينطبق علىّ للأسف ..

لهذا اخترت أسطوانة جميلة الشكل لغلافها ألوان براقة ، ووضعتها على جهاز الفونوغراف الصغير ، وبدأت الموسيقا السامّة تفعم جوّ الحجرة طاردة الذباب والحشرات الصغيرة ..

كانت هى جالسة فى طرف الحجرة وقد أسندت رأسها إلى الجدار ، وحولها تناثرت الصحف والمجلات التى كانت تقرؤها حين رأت الوجه الجديد.. وجه فتاة حسناء ملطخًا بالدماء ..

قلت لها منتقيًا كلماتى :

- « (برنادت) .. سينتهى كل هـذا .. ولسوف تملؤك هذه الذكريات مرحًا يومًا ما ..»

فى مرارة ساخرة قالت دون أن تحرك ساكنة فى بدنها :

- « حقًا إن المرح موجود .. أشعر به من الآن ..»

عدت أقول لها محاولاً أن أبدو منطقيًا :

- « ثمـة شىء آخـر .. هــذه الوجـوه لا تزورك إلا فى إضاءة معينة ..»

- « لقـد عـرفت هـذا من زمـن .. ظلام غرفتى الخافت .. ظلام قاعة المحاضرات .. الجزء المعتم فى عيادة الأطفال .. حقل المجهر .. لا بد من ظلام غير تام .. لا بد من ضوء خافت جانبى ..»

«هذه الوجـوه تفرّ عندما ترى الشمس الساطعة أو الظلام الحالك .. وهو نفس مـا يحدث لـ (الذبابة الطائرة) ..»

ساد الصمت بعض الوقت ، ثم سألتها :

- « لمن هذه الأسطوانة ؟»

- « (ليست) .. إنك تكرهها .. أليس كذلك ؟»

- « أنا أكرههم جميعًا ..»

ثم إنها عدلت من جلستها .. اتخذت وضع القرفصاء وراحت تقلب صفحات المجلات التى جاءت بها من (كندا) دون تركيز .. مجرّد طريقة للتشاغل عن المحادثة ، بينما الأخ - هل كان اسمه (ليست) ؟ - يملأ الغرفة بالضجة السيمفونية ..

سألتها بشكل عابر :

- « هل القراءة تريحك ؟ أعنى : لا رؤى ؟»

أصدرت صوتًا متقطعًا من الذى تصدرنه حين يقلن (لا) ، وواصلت التصفح وقد بدا أنها ستطردنى بعد ثوان لأنها لم تعد تطيق أحدًا .. لهذا آثرت الصمت .. كلمة أخرى ستجعلها تنفجر فىّ ..

فجأة سمعتها تصرخ ..

كانت تتصفح مجلة اسمها (الجريمة) حين وصلتْ لملزمة المنتصف وحين رأت ما جعلها تغير جلستها مذعورة ، حتى صارت تزحف على أربع تقريبًا ..

- « هل حدث شىء ما ؟»

- « (علاء) !»

- « ماذا حدث ؟»

ـ « (علاااااء) ! !»

ثم رفعت المجلة مفتوحة فى وجهى .. ورأيت صفحة ملآى بصور صغيرة الحجم بعضها ملون وبعضها أبيض وأسود ، لحشد من القوم رجال ونساء ..

ـ « لقد رأيت هذه الوجوه !»

★ ★ ★

هل ترى هذا ؟ وهذا ؟

هذا هو الرجل الأصلع البدين .. وهذا هو أول وجه رأيته .. أما هذه المرأة فهى التى كانت تصرخ والكهرباء تندلع من عينيها ..

هذه هى الفتاة المخنوقة .. لقد رأيت هذا الوجه فى (كندا) قبل أن أركب الطائرة .. وهذا .. إنه ....

وراحت تضحك فى هستيريا ثم تنشج ..

ولم تدر أنها أشارت إلى كل وجه ، ووصفته سبع مرات منذ رأت المجلة ..

هذا .. هذا هو الرجل البدين الذى كان النصل على عنقه .. وهذه .. كانت تموت صعقًا بالكهرباء .. هذا الرجل هو من ....

أمرتها أن تتوقف ، ثم مددت يدى أنتزع المجلة ..

وبنظرة مدققة رأيت أن هناك خمسةَ عشر وجهًا .. وقد تمَ نشر الصور فى أزواج .. بحيث تظهر الصورة الأولى الضحية فى حياتها الباسمة ، وتظهر الصورة الثانية وجه الجثة الذى يرمقنا فى غباء مذعور..

ربة بيت ـ موظف ـ سكرتيرة ـ بائع جوَال ـ .... إلخ .

أما عنوان الملزمة فكان (أخبار سفاح تورنتو) .. وكان هناك مقال عن سلسلة جرائمه ، ومقال بعنوان (هكذا ينتهون جميعًا) ..

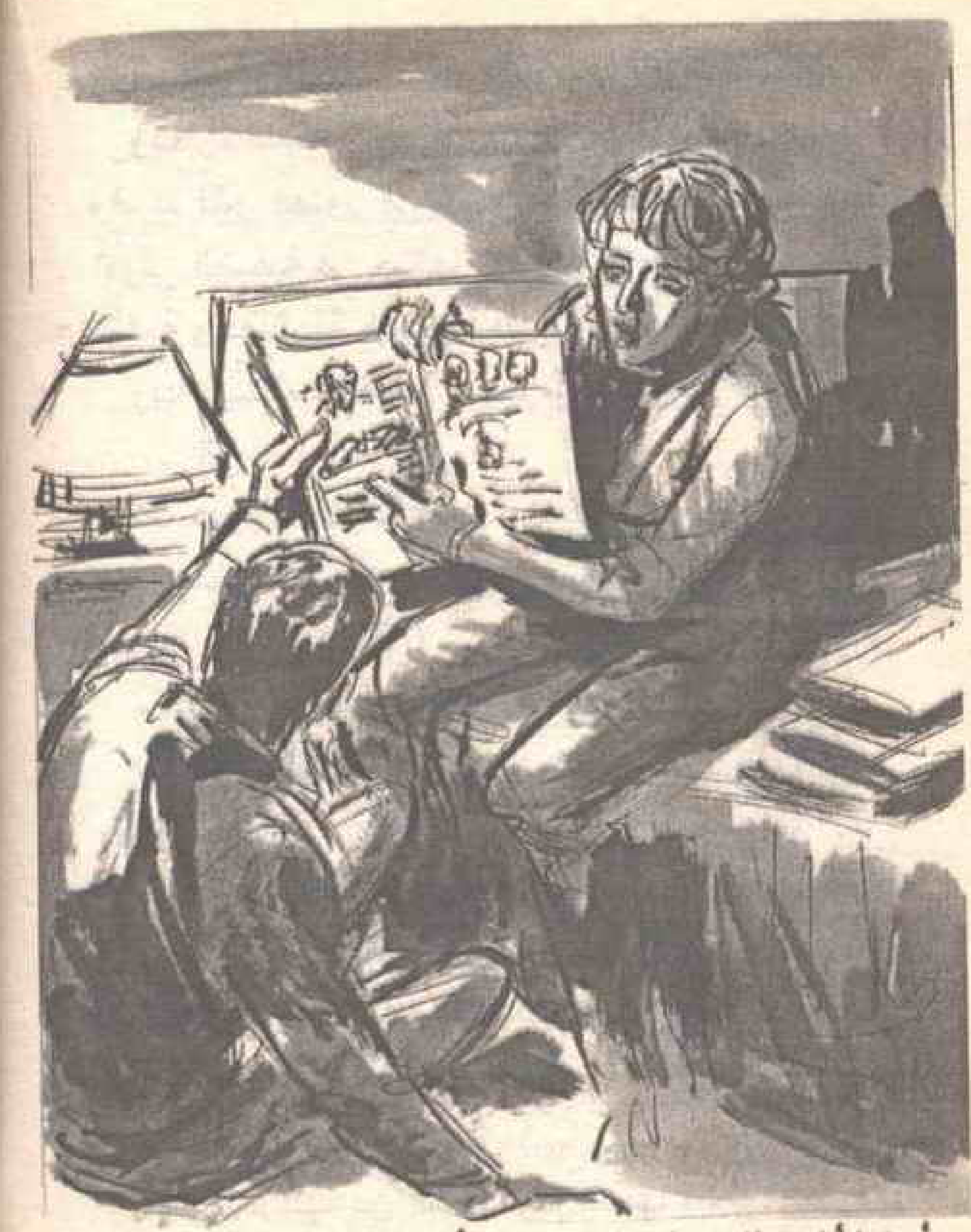
سألتها وأنا أحاول القراءة :

ـ « لا بد أنك سمعت عن هذا السفاح حين كنت هناك ..»

ـ « حقًا سمعت .. لكنى لم أقرأ مقالاً واحدًا عنه ولم أهتم بمشاهدة صور ضحاياه .. إن السفاحين كثيرون فى (أمريكا الشمالية) حتى إنك لا تضيع الوقت بقراءة كل ما كتب عنهم ..»

ـ « أى أن هذه الجريدة ....»

ـ « اشتريتها من المطار ولم أفتحها قط .... »



أمرتها أن تتوقف ، ثم مددت يدى أنتزع المجلة ..

ـ « وأنت واثقة من ..... ؟»

ـ « كل الثقة ..»

بالنسبة لى ، بدا الأمر واضحًا .. هى رأت هذه الصور بشكل ما ونسيت الأمر ، ثم تحرّكت الذكرى المريرة فى عقلها الباطن وفى وقت لم تتوقع فيه شيئًا كهذا .. لكنى لم أعلن رأيى ..

عدت أسألها :

ـ « هل رأيت هذه الوجوه بعد موتها ؟»

ـ « بل لحظة موتها ! إن ما رأيته أنا يقع ما بين كل زوجين من هذه الصور .. لم يكن ما رأيت صور أحياء ولم يكن صور موتى .. بل ـ بدقة ـ صور محتضرين مذعورين ! »

وفى انبهار هتفت وهى تتأمل الجريدة فى يدى :

ـ « ومن الواضح أنهم ماتوا كما رأيتهم بالضبط ! نفس أساليب القتل .. »

نظرت لها عاجزًا عن الكلام .. ثم بعد هنيهة سألتها :

ـ « وهل لديك تفسير معين لكل هذا ؟»

ـ « لا تفسير .. لكنى أشرح لك ما يحدث هنا .. »

- « إذن اسمحى لى بأخذ هذه المجلة .. أريد أن أقرأها على مهل .. »

وطويت الجريدة / المجلة تحت إبطى واتجهت إلى حجرتى ..

* * *

وفى المساء توجهت إلى مكتب (آرثر شلبى) ..

كان جالسًا يقرأ مرجعًا علميًا ، فلما رآنى ابتسم متسائلاً عن الريح التى ألقت بى هاهنا ، فقلت له إننى راغب فى استخدام شبكة (إنترنت) على جهاز الحاسب الخاص به ..

- « أريد الاتصال بمركز لزراعة العيون فى (مونتريال) .. »

- « لا بأس .. لكن هل لديك عنوانه البريدى ؟ »

- « هذا هو ما أريد البحث عنه .. إن لدىَّ اسم المركز كاملاً .. »

وهكذا بدأنا ..

استغرق البحث ربع ساعة ، ثم وجدنا العنوان فأرسلت سؤالاً بسيطًا موجزًا على أن أتلقى الردَّ سريعًا .. إن البريد الإلكترونى يصل لوجهته فى نفس

اللحظة تقريبًا التى تقرَّر فيها إرساله .. لكن لا بد من عامل تأخير يتعلَّق بالمزاج البشرى ، حين يتنازل من يتلقى البريد ويردَّ عليك .. وهو قد يحدث فى يوم أو فى دقائق ..

سألنى (شلبى) وقد أثارت دهشته رسالتى الغامضة :

- « اهتمام علمى مريب ! »

- « فقط لا تنسنى إذا ما ردّوا عليك .. »

* * *

وعند ظهر اليوم التالى سمعت أن (شلبى) يريدنى ..

هرعت إلى مكتبه ، وسألته فى لهفة :

- « ماذا قالوا ؟ »

ابتسم فى برود ، وقال :

- « أنا لا أقرأ رسائل موجهة إليك يا بنى حتى لو كان هذا متاحًا .. لا تنس هذا .. فأسرارك لا تهمنى ! »

- « شكرًا .. هذا كرم منك .. »

وجلست أمام الشاشة أقرأ ردَّ المركز .. هذا هو ما توقعته تمامًا ..

شكرت (شلبى) وفارقته شاعرًا بامتنان شديد لتلك الأعجوبة التى جعلت معرفة معلومات كهذه ، أمرًا متاحًا خلال ساعات ..

* * *

(برنادت) يا ملاكى ..

لا تخافى ولا تفزعى ولا ترتجفى فرقًا ..

إن كل ما أقوله غريب ، وينافى المنطق وما زلنا بحاجة إلى فهمة .. لكنى سأجعلك فى الصورة ..

إن القرنية التى زرعوها لك تخص متوفيًا ..

نعم .. نعم .. لا بد من أن يكون متوفيًا .. حقًّا لا جديد فى هذا .. لكنه متوف فى ظروف مريبة ..

لقد اتصل مركز زراعة العيون ببنك العيون ، وتحقق من مصدر القرنية التى زرعوها لك ..

صاحبها رجل عديم الأهلية .. لم يتعرفه أحد قط .. انتحر فى (تورنتو) بطريقة غامضة جدًا بأن وقف على الطريق السريع أمام الشاحنات المندفعة كالبرق .. وقد تحول جسده إلى (هامبرجر) لكن رأسه ظل سليمًا إلى حدّ ما ، وأمكنهم استنقاذ قرنيته ..

أنت تحملين هاتين القرنيتين إذن ..

* * *

والآن دعينا نتساءل عن سرّ انتحار هذا الرجل ..

دعينا نتساءل عن سرّ رؤيتك لهذه الوجوه الصارخة طيلة الوقت ..

دعينا نتساءل عن سفاح (تورنتو) الذى لم يُعتقل قط ..

دعينا نتساءل عن مقال المجلة الذى يتحدث عن انتحار السفاح الحتمى بعد رقم معين من القتلى..

كل هذه التفاصيل تبدو مترابطة ..

كلها تبدو ذات أهمية عظمى ..

* * *

إن كل هذا هراء لكنه يفرض نفسه بقوة علينا الآن ..

ماذا إذا افترضنا جدلاً أن القرنيتين اللتين تحملينهما الآن هما قرنيتا سفاح (تورنتو) ؟

تذكرين القصص الكابوسية القديمة عن انطباع صورة القتيل على عينى قاتله ؟

هل تجدين تفسيرًا آخر هاهنا ؟

أعرف أنه هراء .. أعرف أنه سخف ..

العين ليست فيلمًا خامًا تنطبع عليه الصور ، ولو

حدث هذا لكانت الشبكية أولى بشىء كهذا .. فالقرنية قطعة زجاج بريئة لا ذنب لها ..

لكن هل تجدين تفسيرًا آخر ؟

حقًا يجب أن نعرف أكثر وأن نفهم ..

حقًا يجب أن نجد تفسيرًا أفضل ..

إن أشياء رهيبة ستحدث هاهنا ..

يمكننى أن أقسم على ذلك ..

* * *

نهاية الجزء الأول

روايات مصرية للجيب

سافاري

مغامرات طبيب شاب يجاهد
لكي يظل حيا ولكي يظل طبيبا

الآن تراه ..!

الآن تراه ..! قد تكون وحيدًا وقد تكون بين رفاقك .. قد تكون سعيدًا وقد تكون مكتئبًا .. قد تكون شاردًا أو تكون غارقًا في التركيز .. الآن تراه .. ورؤيته لاتعني سوى المزيد من الهلع .. لأن ماتراه هو الموت بعينه ..

د. أحمد خالد توفيق

العدد القادم
الكابوس

الناشر
المؤسسة العربية الحديثة
للطبع والنشر والتوزيع

الثمن في مصر ١٥٠
وما يعادله بالدولار الأمريكي
في سائر الدول العربية والعالم